التناسق بين سورتي مريم والزخرف
دراسة تحليلية

إعداد
مجاهد نيازي جوشقون

المشرف
الدكتور يحيى ضاحي شطناوي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في
التفسير

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

آب، 2016

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (التناسق بين سورتي مريم والزخرف دراسة تحليلية)، وأجيزت بتاريخ: 09\08\2016

أعضاء لجنة المناقشة **التوقيع**

الدكتور يحيى ضاحي شطناوي، مشرفاً

أستاذ مشارك، التفسير وعلوم القرآن

الدكتور سليمان محمد الدقور، عضواً

أستاذ مشارك، التفسير وعلوم القرآن

الدكتور محمد مجلي ربابعة، عضواً

أستاذ مساعد، التفسير وعلوم القرآن

الدكتور هارون نوح معابدة، عضواً

أستاذ مساعد، التفسير وعلوم القرآن، (جامعة العلوم الإسلامية العالمية)

الإهداء

أهدي هذا البحث المتواضع...

إلي والدي العزيزين اللذين يعجز اللسان عن ذكر ما قدماه من أجلي طوال حياتي.

وإلى أخواتي اللاتي وقفن معي في مسيرتي التعليمية.

إلى الذين وقفوا أنفسهم على العلم وللعلم.

راجيًا من الله تعالى التوفيق والقبول والسداد.

الشكر والتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

إنما الحمد والشكر لله عزّ وجلّ الذي منّ علي بإتمام هذه الرسالة.

وأتوجه بالشكر الجزيل لمشرفي فضيلة الدكتور يحيى شطناوي الذي سعدت بإشرافه على هذه الرسالة. فكانت إرشاداته وملاحظاته وتوجيهاته نوراً لهذا البحث، وكان له الأثر الكبير في تقويم الرسالة وإخراجها على هذه الصورة.

ثم أثني بالشكر على الجامعة الأردنية لما قدمت لنا من تسهيلات الإلتحاق بهذا الصرح العلمي الشامخ، وفتحت لنا الأبواب لإكمال دراستنا العليا في أروقتها. كما أتقدم بفائق الشكر والإمتنان لكلية الشريعة قسم أصول الدين، ممثلةً بأساتذتها الكرام الذين حببوا إلينا طلب العلم، وزوّدونا من العلم النافع الشيء الكثير.

كما أتوجه بالشكر إلى وزارة التعليم التركية التي منحت لي الفرصة والمنحة للدراسة.

وأتوجه بخالص الشكر إلى والديّ الذين قدما لي عوناً معنوياً بدعواتهم في طلب العلم في الأردن.

وأتقدم بالشكر كذلك إلى كلّ من أسدى إلي نصحاً أو ساعدني في هذا البحث من أساتذة وأصدقاء.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

قرار لجنة المناقشة ..... ب
الإهداء ..... ج
الشكر والتقدير ..... د
فهرس المحتويات ..... ه
الملخص ..... ز
المقدمة 1
الفصل التمهيدي: مقدمات بين يدي الدراسة 7
تعريف التناسق لغةً واصطلاحاً 7
التعريف بالمصطلحات الأخرى في مفهوم التناسق 9
التناسب 9
الوحدة الموضوعية 9
الفصل الأول: التعريف بسورتي مريم والزخرف 11
المبحث الأول: التعريف بسورة مريم 11
المطلب الأول: اسم السورة وعدد آياتها 11
المطلب الثاني: نزول السورة وفضائلها 12
المطلب الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها 14
المطلب الرابع: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها 14
المطلب الخامس: مقاصد سورة مريم وموضوعها العام 17
المبحث الثاني: التعريف بسورة الزخرف 19
المطلب الأول: اسم السورة وعدد آياتها 19
المطلب الثاني: نزول السورة و فضائلها 21
المطلب الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها 23
المطلب الرابع: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها 24
المطلب الخامس: مقاصد سورة الزخرف و موضوعها العام 26
الفصل الثاني: التناسق الموضوعي بين سورتي مريم والزخرف 29
المبحث الأول: التناسق الموضوعي الأساسي بين سورتي مريم والزخرف 31
المطلب الأول: إثبات وحدانية الله سبحانه 32
المطلب الثاني: تنزيه الله تعالى عن الولد 40
المطلب الثالث: إثبات البعث يوم القيامة 49
المطلب الرابع: إثبات نبوة رسول الله صلى الله وسلم 54

المبحث الثاني: التناسق الموضوعي الفرعي بين سورتي مريم والزخرف 60
المطلب الأول: وجوب الإيمان بالملائكة 60
المطلب الثاني: عداوة الشيطان لبني آدم 64
المطلب الثالث: الرد على من يزعم الشفاعة للكافرين يوم القيامة 68
المطلب الرابع: الجنة ونعيمها 71
المطلب الخامس: جهنم وعذابها 74
المبحث الثالث: التناسق القصصي بين سورتي مريم والزخرف 77
المطلب الأول: قصة إبراهيم عليه السلام 78
المطلب الثاني: قصة موسى عليه السلام 83
المطلب الثالث: قصة عيسى عليه السلام 85
الفصل الثالث: التناسق في متشابه النظم بين سورتي مريم والزخرف 91
المبحث الأول: التناسق في متشابه الآيات بين سورتي مريم والزخرف 92
المبحث الثاني: التناسق في متّفق الكلمات التي ذكرت في كلتا السورتين 97
المبحث الثالث: التناسق العددي بين سورتي مريم والزخرف 101
الخاتمة 103
المراجع 105
ABSTRACT 114

التناسق بين سورتي مريم والزخرف
دراسة تحليلية

إعداد
مجاهد نيازي جوشقون

المشرف
يحيى ضاحي شطناوي

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز التناسق بين سورتي مريم والزخرف ودراستهما دراسة تحليلية مقارنة.

وبدأ الباحث الدراسة بمقدمات بين يدي الدراسة، حيث قام بتعريف كلمة التناسق لغة واصطلاحاً، وبالتعريف بالمصطلحات الأخرى في مفهوم التناسق مثل التناسب والوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم.

ثم عرف الباحث سورتي مريم والزخرف بجوانب مختلفة، حيث تناول اسم السورتين وعدد آياتهما، ونزولهما وفضائلهما، ومناسباتهما ومقاصدهما.

ثمّ تناول التناسق بين السورتين موضوعاتهما الأساسية والفرعية، وذلك إن السورتين تحدثتا عن الموضوعات نفسها مع تناسقهما وتشابهما في تناول هذه الموضوعات، ثمّ أشار إلى التناسق القصصي بين السورتين، حيث إن كلتا السورتين تحدثتا عن قصص إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام طارحة المحاور نفسها، وبيّن أيضاً مناسبة ذكر هذه القصص مع موضوع السورة وسياقها.

وأخيراً تحدث الباحث عن التناسق في متشابه النظم بين السورتين، فأشار إلى الآيات المتشابهة في السورتين، وبيّن تناسق هذه الآيات في كلتا السورتين، وأشار إلى التناسق في ورود بعض الكلمات المعيّنة فيهما، وإلى تناسق العددي بين السورتين.

ثمّ ختم البحث بخاتمة ذكر فيها أهم النتائج التي تظهر التناسق الصريحة بين السورتين مع أنهما سورتان متباعدتان في ترتيب المصحف، وذكر فيها التوصيات.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصلاة الله وسلامه على سيد المرسلين محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار أجمعين. وبعد:

فالقرآن الكريم معجزة الله الخالدة، وحجته الباقية، فهو كتاب الله كتاب نور وهداية، كتاب علم وعمل. نزل الله هذا الكتاب العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لمدة ثلاثة وعشرين سنة منجماً مفرقاً. فكلّما نزلت على رسولنا صلى الله عليه وسلم آية كان يأمر أصحابه بكتابة الآيات في مواضع هو يعينها لهم على ما وقّفه جبريل عليه السلام بغض النظر عن ترتيب نزولها، وقد تكوّن مما جمع على هذا النحو سور منتظمة المباني متسقة المعاني ومتناسقة الموضوعات والقصص والآيات والكلمات وحتى الحروف، لا ترى أدنى خلل في بنائها أو تنافر بين آياتها وكلماتها وحروفها.

وهو معجزة بتناسق وانسجام سوره وآياته وكلماته، كأنه نزل لسبب واحد ولمخاطب واحد دفعة واحدة، على الرغم أنه نزل على سيدنا محمد صلى الله وسلم في مدة ثلاثة وعشرين سنة ولأسباب مختلفة ولمخاطبين مختلفين، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[سورة النساء:82]. والحال أن في القرآن الكريم كله تناسقاً كبيراً وعجيباً، فلا يستطيع أحد من الأدباء أو البلغاء أن يؤلف كلاماً أو نظماً متناسقاً متناسباً كمثل القرآن الكريم، كأنه يتحدث عن موضوع واحد من آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[سورة الفاتحة:1]، إلى آية ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[سورة الناس:6].

الحاصل، أنّنا إذا استقرأنا القرآن الكريم كله من أوله إلى آخره، نرى فيه التناسق والانسجام العظيم الذي لا طاقة لبشر أن يقدر عليه، وليس هذا التناسق في داخل السورة فقط، بل هذا التناسق موجود وواقع بين السور القرآنية سواء كانت السور متتابعة أو متباعدة تبعاً لترتيب المصحف.

وبناء على ذلك، فقد اختار الباحث أن يدرس أحد الأمثلة المتعددة على هذا التناسق والانسجام، وهو التناسق الحاصل بين سورتي مريم والزخرف، فعلى الرغم من تباعد السورتين في ترتيب المصحف، إلا أن هناك تناسقاً كبيراً بينهما.

وتبحث هذه الدراسة في موضوع التناسق بين سورتي مريم والزخرف، وتبين هذا التناسق من جوانب مختلفة، وتعد شواهده متعددة ومتنوعة الأبعاد.

مشكلة الدراسة:

تتلخص مشكلة الدراسة في الأسئلة الآتية:

- تعريف التناسق لغة واصطلاحاً، وتعريف مصطلح التناسب والوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم وبيان المقصود بالتناسق بين السور.
- بيان التناسق بين سورتي مريم والزخرف من حيث موضوعاتهما وقصصهما.
- إبراز التناسق بين السورتين في الآيات المتشابهة فيهما، واتفاق ورود بعض الكلمات المعينة، وبيان تناسقهما العددي.

أهمية الدراسة:

تستمد الدراسة أهميتها من خلال القضايا القرآنية الآتية:

- يوجد التناسق بين سورتي مريم والزخرف من حيث موضوعاتهما الأساسية والفرعية وقصصهما، ومتشابه آياتهما واتفاق بعض كلماتهما المعينة.
- يعد هذا التناسق الجلي بين السورتين شواهد مهمة لتدبر معجزة القرآن بنظمه وآياته وكلماته.
- يعد موضوع الرسالة إضافة علمية في مجال النظم القرآني، لم يتطرق إليه أحدٌ بهذه الكيفية على حسب علمي.

أهداف الدراسة:

تتلخص أهداف الدراسة في الآتي:

- بيان معنى التناسق وتقديم الشواهد القرآنية من خلال سورتي مريم والزخرف .
- إبراز التناسق الموضوعي بين سورتي مريم والزخرف.
- إبراز التناسق في متشابه النظم بين سورتي مريم والزخرف.

- الإستفادة من الأدب النظري والدراسات السابقة في مجال التناسق القرآني في الموضوع أو في متشابه اللفظ بين آيات وسور القرآن الكريم وبيان حكمة هذا التناسق ولطائفها بين سورتي مريم والزخرف.

الدراسات السابقة:

فيما يخص الدراسات العلمية حول التناسق بين سورتي مريم و الزخرف ؛ فإنه بحسب حدود ما قمت به من بحث في الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع ؛ فإنني لم أقف على دراسة حول موضوع هذه الدراسة إلا أن هناك دراسات ذات صلة بالموضوع، أذكر منها الآتي:

1. رسالة ماجستير معنونه بـ(التناسق الموضوعي في سورة الزخرف)، حيث تقدمت بها الباحثة ولاء أحمد عبد الله نور الهدى، لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى، في عام 1435هـ، وهدفت الدراسة إلى بيان التناسق في موضوعات سورة الزخرف و ترابط آياتها و وحدة أهدافها، وتميزت دراستي عنها بأنها تبحث التناسق بين سورة مريم والزخرف في دراسة قرآنية مقارنة.
2. رسالة ماجيستر معنونة بـ(سورة الزخرف، دراسة تحليلية موضوعية)، حيث تقدم بها الباحث محمد يوسف أحمد عبابنة، لنيل درجة الماجستير من الجامعة الأردنية، في عام 1996. وهدفت الدراسة إلى بيان الوحدة الموضوعية في سورة الزخرف وبيان موضوعاتها الأساسية والفرعية مع تحليل آيات السورة كلها بالمباحث.
3. رسالة ماجستير معنونة بـ (دراسة أسلوبية في سورة مريم) تقدم بها الباحث معين رفيق أحمد صالح لنيل درجة الماجستير من جامعة النجاح الوطنية، في عام 2003. وتناولت الدراسة سورة مريم وفق المنهج الأسلوبي وهو منهج يتمحور حول معطيات علم اللغة. وبحثت الدراسة في المستوى الصوتي والدور البياني والموسقي للأصوات والكلمات في السورة.
4. التفسير الموضوعي لسورة مريم، أحمد محمد الشرقاوي، 2007. تهدف هذه الدراسة إلى تفسير سورة مريم من حيث موضوعاتها، ولهذا يفرق المؤلف سورة مريم إلى مقاطع ومحاور على حسب موضوعات سورة مريم ويحلل الآيات التي في المقطع.

كل هذه الدراسات تناولت سورة مريم والزخرف من حيث الموضوع والأسلوب والتناسق منفصلة، وتهدف هذه الدراسة إلى بيان التناسق ما بين سورتي مريم والزخرف معاً من حيث الموضوع والقصص والآيات المتشابهة والكلمات المشتركة.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الاستقرائي في استخلاص مضامين التناسق بين سورتي مريم والزخرف من حيث تناسق الموضوعات والقصص ومتشابه الآيات واتفاق الكلمات.

كما استخدم الباحث المنهج التحليلي من خلال تحليل الآيات التي تتناسق بين سورتي مريم والزخرف في جوانب مختلفة ومنها الجانب اللغوي والبلاغي.

واستخدم المنهج المقارن من خلال مقارنة الموضوعات والقصص والآيات المتشابهة والكلمات المشتركة التي تذكر في كلتا السورتين.

هيكل الدراسة:

استقدعت طبيعة الدراسة أن يقسّم إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة

الفصل التمهيدي: مقدمات بين يدي الدراسة

التعريف بالتناسق لغةً و اصطلاحاً

التعريف بالمصطلحات الأخرى في مفهوم التناسق

التناسب

الوحدة الموضوعية

الفصل الأول: التعريف بسورتي مريم والزخرف

المبحث الأول: التعريف بسورة مريم

المطلب الأول: اسم السورة وعدد آياتها

المطلب الثاني: نزول السورة وفضائلها

المطلب الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها

المطال الرابع: مناسبة السورة لما قبلها و ما بعدها

المطلب الخامس: مقاصد سورة مريم و موضوعها العام

المبحث الثاني: التعريف بسورة الزخرف

المطلب الأول: اسم السورة وعدد آياتها

المطلب الثاني:نزول السورة وفضائلها

المطلب الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها

المطلب الرابع: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

المطلب الخامس: مقاصد سورة الزخرف وموضوعها العام

الفصل الثاني : التناسق الموضوعي بين سورتي مريم والزخرف

المبحث الأول: التناسق الموضوعي الأساسي بين سورتي مريم والزخرف

المطلب الأول: إثبات وحدانية الله سبحانه

المطلب الثاني: تنزيه الله عن الولد

المطلب الثالث: إثبات البعث يوم القيامة

المطال الرابع: إثبات نبوة رسول الله صلى الله وسلم

المبحث الثاني: التناسق الموضوعي الفرعي بين سورتي مريم والزخرف

المطلب الأول: وجوب الإيمان بالملائكة

المطلب الثاني: عداوة الشيطان لبني آدم

المطلب الثالث: الرد على من يزعم الشفاعة للكافرين يوم القيامة

المطلب الرابع: الجنة ونعيمها

المطلب الخامس: جهنم وعذابها

المبحث الثالث: التناسق القصصي بين سورتي مريم والزخرف

المطلب الأول: قصة إبراهيم عليه السلام

المطلب الثاني: قصة موسى عليه السلام

المطلب الثالث: قصة عيسى عليه السلام

الفصل الثالث: التناسق في متشابه النظم بين سورتي مريم والزخرف

المبحث الأول: التناسق في متشابه الآيات بين سورتي مريم والزخرف

المبحث الثاني: التناسق في متفق الكلمات التي ذكرت في كلتا السورتين

المبحث الثالث: التناسق العددي بين سورتي مريم والزخرف

الخاتمة

الفصل التمهيدي: مقدمات بين يدي الدراسة

تعريف التناسق لغة واصطلاحاً

أولاً: معنى التناسق لغة

التناسق: "مصدر فعل تَنَاسَقَ، وهو مزيد، أصله -نون سين قاف من أصل صحيح- (نَسَقَ)، ومصدره نسْق بتسكين عين الفعل، يقال: نسقْت الكلام إذا عطفت بعضه على بعض، والإسم منه النسَق بتحريك عين الفعل، والنسَق من كل شيء: ما كان على طريقة ونظام واحد، عام في الأشياء، و يطلق أيضاً على ما جاء من الكلام على نظام واحد، وحروف العطف يسميها النحويون حروف النسق؛ لأن الشيء إذا عطفْت عليه شيئاً بعده أصبح نظاماً واحداً، ويقال: أنسق الرجل إذا تكلم سجعاً، ويقال: تناسقت الأشياء وانتسقت وتنسّقت بعضه إلى بعض بمعنىً، وكل هذه الأفعال الثلاثة مطاوعة لنسّقه تنسيقاً."[1]

وأصل استخدام كلمة التناسق في الزينة والحلية كمثل الدرّ واللؤلؤ والخرز، وهذه من الأشياء التي تحتاج إلى نظام متناسب تشعر بالجمال والذوق. وتستخدم كلمة التناسق في الكلام مجازاً، ويقال: "كلام متناسق، إذا تناسق كلام الرجل وجاء على نسق ونظام."[2]

وعلى هذا يمكن أن يخلص معاني "تناسق الكلام" لغة:

1- نظم الكلام وحسن تركيبه.

2- عطف الكلام بعضه على بعض.

3- الملاءمة والمتابعة بين أجزاء الكلام.

4- توالي الكلام واتصال بعضه ببعض.

---

[1] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1987، ج4 - ص244؛ أبو بكر الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الحنفي، مختار الصحاح، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، ط5، بيروت، 1999، ص309؛ ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414، ج10- ص352-353؛ الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، بيروت، 2005، ص925؛ الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض الملقّب بمرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ج26 – ص419.

[2] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1998، ج2 – ص266.

ثانياً: معنى التناسق اصطلاحاً

لم يعرّف أحد من علماء التفسير وعلوم القرآن مصطلح التناسق مفرداً على حسب اطلاعي، إلا أنه قد ورد هذا المصطلح في كلام بعض المفسرين.[1]

وقال صاحب مناهل العرفان أثناء حديثه عن خصائص أسلوب القرآن: "إن القرآن بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر مع طول نفسه، وتنوّع مقاصده وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد، إلى أن قال: فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة، فبين كلمات جملة السورة الواحدة من التآخي والتناسق، ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات، وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابًا سوي الخلق حسن السمت: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[سورة الزمر:28]... ممّا جعلها وحدة متناسقة الآيات."[2]

وعدّ سيد قطب في كتابه "التصوير الفني في القرآن" التناسق في القرآن وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، وقد تناول هذا الوجه في كتابه تحت عنوان " التناسق الفني" وقال: "هناك التناسق الذي يبلغ الذروة في تصوير القرآن، والتناسق ألوان ودرجات، ومن هذه الألوان ما تنبه إليه بعض الباحثين في بلاغة القرآن، ومنها ما لم يمسسْه أحد منهم حتى الآن، منها ذلك التنسيق في تأليف العبارات بتخير الألفاظ ثم نظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها، ومنها الإيقاع الموسقي الناشيء من تخيير الألفاظ ونظمها في نسق خاص، ومنها التسلسل المعنوي بين الأغراض، ومنها التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص والخطوات النفسية التي تصاحبها...إلى غير ذلك من ألوان التناسق."[3]

وقال أيضاً في آخر مبحث التناسق الفنيّ: "وهكذا تتكشّف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التناسق والإتساق: فمن نظم فصيح إلى سرد عذب، إلى معنىً مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبّر، إلى تعبير مصوّر، إلى تصوير مشخص، إلى تخييل مجسم، إلى موسقي منغمة، إلى اتساق في

---

[1] من هؤلاء المفسيرين: فخر الرازي، ابن عطية، البقاعي، أبو حيان، سيد قطب، وابن عاشور.

[2] الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1995، ج.2 – ص248.

[3] سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، د.ت، ص87-88.

الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الموسقي، إلى افتنان في الإخراج... و بهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز."[1]

ويمكنا القول بأن سيد قطب هو المفسر الوحيد الذي اعتنى بتناسق القرآن في تفسيره "في ظلال القرآن" أكثر من المفسرين دونه، وقد تناول تناسق القرآن بين سوره وآياته وكلماته في تفسيره كثيراً، واستخدم كلمة "التناسق" بشكل مطّرد.

وعلى هذا يتبين لنا أن التناسق في القرآن: هو التلاؤم والانسجام والنظام بين موضوعات السور وقصصها وآياتها وكلماتها وحروفها.

التعريف بالمصطلحات الأخرى في مفهوم التناسق

التناسب

أصله نسب -النون والسين والباء- كلمةٌ واحدة تدل على اتّصال شيءٍ بشيء. والتناسب هو التشاكل والتقارب والتشابه بين الشيئين، كقولهم: ليس بينهما مناسبة قريبة، أي: مشاكلة.[2]

وقال السيوطي في هذا المصطلح: "المناسبة في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه، وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء."[3]

والمقصود به: أوجه الإتصال والترابط بين سور القرآن وآياته وكلماته.

الوحدة الموضوعية

قال ابن فارس في كلمة "الوحدة" في كتابه معجم مقاييس اللغة: " الواو والحاء والدال، أصلٌ واحد يدلُّ على الانفراد. من ذلك الوَحْدَة، وهو وَاحدُ قبيلته، إذا لم يكنْ فيهم مثلُه."[4]

---

[1] سيد قطب، التصوير الفنّي، ص142.

[2] ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، 1979، ج5 – ص423؛ ابن منظور، لسان العرب، ج1 – ص755-756؛ الزبيدي، تاج العروس، ج4 – ص265.

[3] السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، بيروت، 2008، ص631.

[4] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج6 – ص90.

وذكر الراغب الأصفهاني في المفردات ما يأتي: "الوحدة: الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود حتى إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به."[1]

وكلمة "الموضوعية" نسبة إلى الموضوع، وهو اسم مفعول لفعل وَضَعَ يَضَعَ وَضْعاً ومَوْضُوعاً، وهو ضد الرفع ويدل على الخَفْض للشيء وحطِّه. وهو الفكرة والقضية التي يبني عليه المتكلم أو الكاتب كلامه.[2]

والمعنى المراد بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: "هو البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة، ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه لنحقق الهدف."[3]

---

[1] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، ط5، دمشق، 2011، ص857.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج8 – ص396؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج6 – ص117؛ إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، ومحمد النجار، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، ص1040.

[3] حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب الحديثة، ط1، القاهرة، 1970، ص33-34.

الفصل الأول: التعريف بسورتي مريم والزخرف

المبحث الأول: التعريف بسورة مريم

المطلب الأول: اسم السورة وعدد آياتها

لا يخفى معرفة أسماء سور القرآن الكريم لها أهمية عظيمة، لغاية إلقاء نظرة كلية حول السورة من حيث مقاصدها وأهدافها، ولذلك فإن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء يظهر المناسبة بينه وبين مسماه الدّال إجمالاً على تفصيل ما فيه.[1]

أولاً: اسم السورة

سميت هذه السورة الكريمة بسورة مريم، وورد هكذا اسم السورة في المصاحف وفي كتب التفسير، ووجه تسميتها بسورة مريم اشتمالها على قصة حمل السيدة مريم عليها السلام وولادتها بعيسى عليه السلام من غير أب، وما ارتبط بولادته من حوادث عجيبة، ومنها كلام عيسى عليه السلام وهو طفل صغير في المهد.[2]

ومريم في اللغة: العابدة والخادمة، ووزنها مَفْعَل من رَامَ-يَرِيمُ، واختار بعض العلماء المتأخرين أنه معرّبة من السريانية من كلمة "مارية" بمعنى الجارية، وسميت به والدة عيسى، فامتنع الصرف للتأنيث والعلمية.[3]

---

[1] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ج1 – ص12.

[2] انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج16 – ص57؛ الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، ط10، دمشق، 2009، ج8 – ص379.

[3] الزبيدي، تاج العروس، ج32 – ص302؛ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1 – ص385؛ الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج3 – ص136؛ أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تفسير البحر المحيط دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2001، ج1 – ص465.

وسمّاها ابن عباس رضي الله عنهما بسورة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾،[1] لأنها افتتحت بهذه الحروف المقطعة، وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير،[2] ولعلّ السيوطي لم ير الإسم الثاني ولم يعدها في ما بين السور المسماة باسمين.[3]

ثانياً: عدد آياتها

يبلغ عدد آيات سورة مريم ثمان وتسعون آية في عدد أهل الشام والكوفة، وتسع وتسعون آية في عدد أهل المدينة ومكة،[4] وصار اختلافهم في ثلاث آيات:

- ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم:1] عدها الكوفي ولم يعدها الباقون.
- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾[مريم:41] عدها المدني الأخير والمكي ولم يعدها الباقون.
- ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾[مريم:75] لم يعدها الكوفي وعدها الباقون.[5]

المطلب الثاني: نزول السورة وفضائلها

أولاً: نزول السورة

وسورة مريم مكية عند الجمهور،[6] وقد خالف البعض في الآيتين:

---

[1] انظر: البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1997، ج5 – ص215؛ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الخير، ط1، بيروت، 1992، ج3 – ص360؛ الألوسي، روح المعاني، ج16 – ص56.

[2] البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، ط1، 1422، كتاب تفسير، باب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، ج6 – ص93.

[3] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص57.

[4] انظر: الألوسي، روح المعاني، ج16 – ص57؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص58.

[5] انظر: أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر الأموي، البيان في عد آي القرآن، مركز المخطوطات والتراث،ط1، الكويت، 1994، ص181؛ المخللاتي، رضوان بن محمد بن سليمان، شرح العلامة المخللاتي المسمى بـ «القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز» على ناظمة الزهر، مطابع الرشيد، ط1، المدينة، 1992، ص229.

[6] انظر: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993ج4 – ص3؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، ط3، بيروت، 1404، ج5 – ص204؛ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، دار عالم الكتب، الرياض، 2003، ج11 – ص74.

أ- روي عن مقاتل أن آية السجدة مدنية،[1] وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[مريم: 58] الآية، وذهب ابن عاشور إلى أنه لا يستقيم أن تكون مدنية لاتصال هذه الآية بالآيات قبلها.[2]

ب- وقد استثنى صاحب الإتقان آية ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾[مريم:71] أيضاً، ولم يعزه لقائله.[3]

والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو أنها مكية كلها، وكان نزولها مبكراً في العهد المكي، كما يتضح هذا من حديث جعفر بن أبي طالب،[4] ومن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.[5]

وهي السورة الرابعة والأربعون وفق ترتيب النزول، كما أنها السورة التاسعة والعشرة في المصحف، ونزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه.[6]

---

[1] انظر: أبو حيان، البحر المحيط ج6 – ص162-163؛ الألوسي، روح المعاني، ج16 – 56.

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص57.

[3] السيوطي، الإطقان في علوم القرآن، ص42.

[4] حين قدم وفد قريش إلى النجاشي ملك الحبشة في طلب من هاجر إليها، دار حوار طويل بين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وبين النجاشي والقساوسة وبين وفد قريش، رواه الإمام أحمد وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "... فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: اقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كهيعص﴾، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا..."، أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون)، مؤسسة الرسالة، 1999، ج3 – ص266، وج37 – ص173. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرح بالسماع"، الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، القاهرة، 1994، كتاب المغازي والسير، باب الهجرة إلى الحبشة، ج6 – 27.

[5] روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: " بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطه وَالْأَنْبِيَاءُ : هُنَّ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي"، صحيح البخاري، كتاب تفسير، باب قوله: ﴿ومنكم مّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، (4708)، ج6 – ص82. وقال البيهقي في شعب الإيمان: "والعتاق: جمع عتيق، والعرب تجعل كلَّ شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقاً، يريد تفضيل هذه السور لما تتضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتلاد ما كان قديما من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام، لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم"، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، شعب الإيمان، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، 2003، فصل في فضائل السور والآيات، ذكر سورة الكهف، (2224)، ج4 – ص88.

[6] ابن عاشور، التحرير، ج16 – ص58.

ثانياً: فضائلها

رويت في فضل هذه السورة الأحاديث والآثار التي ترغّب في تلاوتها وتبيّن مزيتها، منها:

- روي عن واثلة بن الأسقع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ."[1] وهذه السورة الكريمة تعدّ من سور المثاني، والمثاني ما ولي المئين لأنها ثنتها، أي كانت بعدها، فهي لها ثوان، والمئين كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها، و المثاني دون المئين.[2]

المطلب الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها

لقد بدأت سورة مريم بحروف المقطعة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم:1]، وأنها نماذج من الحروف التي يتألف منها هذا القرآن، التي تلمح إلى أن القرآن كتاب معجز عربيّ مبين في حروفه وكلماته وآياته وأساليبه، وفي ختامه تبيّنت الحكمة من نزول القرآن بلسان عربيّ مبين: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[مريم:97].

وقال البقاعي: "فقد ختمت السورة بما بدئت به من الرحمة لأوليائه، والود لأصفيائه، والنعمة للذين خلفوا بعدهم من أعدائه، بعد الرحمة للفريقين بهذا الكتاب بشارة ونذارة، فحلت الرحمة على أوليائه، وزلت عن أعدائه."[3]

وممّا سبق يظهر أن الصلة بين فاتحة سورة مريم وخاتمتها واضحة جلية كما تبينت بهذه المناسبات.

المطلب الرابع: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

أولاً: مناسبة السورة لما قبلها

---

[1] أحمد بن حنبل، ج4 – ص107؛ قال الألباني: فالحديث بمجموع طرقه صحيح. السلسلة الصحيحة، الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، 1995، ج3 – ص469.

[2] انظر: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957، ج1 – ص244-245، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص139، 141.

[3] البقاعي، نظم الدرر، ج4 – ص561.

سورة الكهف هي السورة التي جاءت قبل سورة مريم علي ترتيب المصحف، والعلاقة بين هاتين السورتين واضحة جلية، ومن هذه المناسبات:

أ- اختتمت سورة الكهف بتأييد بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[الكهف:110]، وأتبعت بعده سورة مريم مؤكدة و مقررة بشرية عيسى عليه السلام ونبوته، وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[مريم:30].[1]

ب- اشتملت سورة الكهف على قصص عجيبة مثل قصة اصحاب الكهف، وقصة موسى عليه السلام مع الخضر وما فيها من الخارقات، وقصة ذي القرنين، وقصة صاحب الجنتين الذي اغترّ بما عنده، وكذلك جاءت سورة مريم بقصص عجاب منها، وهو قصة زكريا في ولادة ابنه يحيى عليهما السلام مع كبره وعُقْمِ زوجته، وقصة عيسى عليه السلام في ولادته بغير أب، ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله، وكذلك تناسبت السورتان المتتاليتان.[2]

ج- ختمت سورة مريم بما ابتدأت به سورة الكهف من بيان مقاصد القرآن، وقال تعالى في طليعة سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[الكهف:1-2]، وقال تعالى في آخر سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.[3]

د- ورود إنذار من ادعى لله ولدً في مقدمة سورة الكهف، وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[الكهف:4]، وكذلك سورة مريم أكدت ما جاء في سورة الكهف من نفي

---

[1] انظر نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي- جامعة الشارقة، ط1، 2010، ج4 – ص409.

[2] انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج6 – ص163؛ الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، البرهان في تناسب سور القرآن، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط1، 1428، ص128؛ البقاعي، نظم الدرر، ج4 – ص518؛ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج8 – ص380.

[3] انظر: نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج4 – ص410.

الولد بذكر قصة حمل مريم وولادتها عيسى عليهما السلام، وذكرت الآيات الأخرى التي نفت أن يكون لله ولداً.[1]

هـ- الحديث عن صاحب الجنتين الذي اغترّ بماله وولده في سورة الكهف، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف:34]، وفي سورة مريم تكرر هذا النموذج البشري في الكافرين: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[مريم:77].[2]

ثانياً: مناسبة السورة لما بعدها

ذكر السيوطي عدة وجوه في المناسبة بين سورة مريم وسورة طه التي جاءت بعدها في المصحف، من هذه الأوجه:

أ- افتتاح كلتا السورتين بالحروف المقطعة.

ب- بيان قصص الأنبياء في سورة مريم، وهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام الذين بسطت قصتهم، وإبراهيم عليه السلام وقصته ما بين البسط والإيجاز، وموسى عليه السلام وقصته موجزة بجملة، وأشار إلى بقية النبيّين مجملاً في الآية الأخيرة،[3] وذكر في سورة طه قصة موسى عليه السلام، فاستوعبها غاية الإستيعاب وبسطها أبلغ بسط، ثمّ أشار إلى قصة آدم عليه السلام الذي ذكر مجرد اسمه في سورة مريم،[4] وبذلك تناسبت السورتان بكونهما متتاليتين.

وآخر سورة مريم مرتبط ببداية سورة طه، حيث ذكر تعالى في آخر سورة مريم تيسير القرآن بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام معللاً ذلك بتبشير المتقين وانذار المعاندين، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[مريم:97]، وذكر تعالى في مطلع سورة طه نفس

---

[1] انظر: سورة مريم، الأيات 88 – 93.

[2] انظر: نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج4 – ص411.

[3] وذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا...(58)﴾

[4] ذكر اسم آدم عليه السلام في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ...(58)﴾، وذكرت قصته مفصلة في سورة طه من قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾(116 – 123)، انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، تناسق الدرر في تناسب السور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1986، ص104، ص101 – 102.

المعنى مخاطباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[طه:2-3].[1]

حيث يقول الغرناطي في البرهان فيما يتعلق بين سورتي مريم وطه: "لماّ ذكر سبحانه قصة إبراهيم وما منحه وأعطاه، وقصص الأنبياء بعده وخصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ...﴾[مريم:58]، وكان ظاهر الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العلية والدرجات المنيفة الجليلة، لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾[مريم:59]، وكان هذا مظنة إشفاق وخوف، فأتبعه تعالى بملاطفة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى، فقال: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[طه:2]."[2] وبهذه اللطائف يظهر أن كلتا السورتين مرتبطتان ارتباطاً قوياً.

المطلب الخامس: مقاصد سورة مريم وموضوعها العام

أولاً: مقاصد سورة مريم

الأهداف الأساسية لسورة مريم هي إثبات وحدانية الله، وتنزيه الله عن الولد والشريك، والإلمام بقضية البعث القائمة على التوحيد، وإثبات نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويمكن أن يوجز أهداف هذه السورة الفرعية كما يلي:

أ- ذكر إجابة دعاء زكريا والمنة عليه بولد اسمه يحيى عليهما السلام وإعطائه علم الكتاب والخبر عن نصيحة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر ومناظرة أبيه معه

ب- بيان الرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها عليهما السلام وكرامة مريم بخارق العادة في حملها، وذكر عجائب ولادة عيسى عليه السلام وكلامه في المهد وهو إرهاص لنبوة عيسى عليه السلام، وبيان الرد علي النصارى بزعمهم ألوهية عيسى عليه السلام.

ج- الإشارة إلى قرب موسى عليه السلام من الله تعالى؛ وذكر صدق وعد إسماعيل وبيان رفعة درجة إدريس عليهم السلام.

---

[1] انظر: الآلوسي، روح المعاني، ج16 – ص147.

[2] الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص128 – 129.

د- الإخبار عن أحوال يوم القيامة وحكاية حال أهل الجنة وأهل النار.

ه- إنذار المشركين بأن أصنامهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتخاذها، وبيان الرد على من يزعم بأن هناك شفاعة للكافرين يوم القيامة.

و- التنويه على عداوة الشيطان لبني آدم في الحياة الدنيا.

ز- التنويه إلى اهتمام القرآن بتبشيره المتقين وإنذاره الكافرين المعاندين وتيسيره بأن يكون عربياً.[1]

ثانياً: موضوعها العام

تعالج سورة مريم أمور العقيدة كالشأن في السور المكية غالباً، من تناول موضوعات التوحيد ونفي الولد والشريك عن الله، والإيمان بقضية البعث والجزاء، وهذه هي الموضوعات الأساسية لسورة مريم، ومعلوم أن لكل سورة من سور القرآن وحدة موضوعية موحدة، ولها جوّ خاص يظلّلها ويشيع فيها، وتعالج موضوعاً رئيساً، وتندرج تحته موضوعات فرعية. ومحور سورة مريم هو رحمة الله لعباده، حيث إن آيات سورة مريم تدور حول هذه الصفة.[2]

وصفة الرحمن، صفة من صفات الله الربّانية التي تتجلى في كل المخلوقات، و نستشعر الرحمة في هذه السورة الكريمة في آياتها كلها، ولقد تكرر اسم الله "الرحمن" وكلمة "الرحمة" نسبة لله تعالى كثيراً لتأكيد المحور العام فيها،[3] كما قال سيد قطب: "والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال، فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ(2)﴾ وهو يناجي ربه نجاء: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا(3)﴾، ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيراً. ويكثر فيها اسم الرَّحْمنِ، ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا(96)﴾، ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله حنانا: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا(13)﴾، ومن نعمة الله على عيسى أن جعله براً بوالدته وديعاً لطيفاً: ﴿

---

[1] انظر: الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط3، القاهرة، 1996، ج1 – ص305-306؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص58-59؛ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج8 - 380-381.

[2] انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، ط3، عمان الأردن، 2012، ص64؛ نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج4 – ص406.

[3] انظر: نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج4 – ص406.

وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(32)﴾"[1] وكذلك تستشعر الرحمة الندية في كلمات هذه السورة وعباراتها. ويقول البقاعي أيضاً في سورة مريم: "مقصودها بيان اتصافه سبحانه بشمول الرحمة بإفاضة النعم على جميع خلقه، المستلزم للدلالة على اتصافه لجميع صفات الكمال."[2]

لقد تكرر اسم الرحمن في هذه السورة وحدها ست عشر مرة مع أنه ورد في كل القرآن سبعاً وخمسين مرة،[3] وذكرت كلمة الرحمة أربع مراتٍ للإشارة إلى أن من مقاصدها الأساسية تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمة.[4] وهذا أكبر دليل على أن يكون محور هذه السورة وظلها وجوّها الأساسي رحمةَ الله لعباده وخلقه.

المبحث الثاني: التعريف بسورة الزخرف

المطلب الأول: اسم السورة وعدد آياتها

أولاً: اسم السورة

سميت هذه السورة بسورة الزخرف، واشتهرت بهذا الإسم في المصاحف وكتب التفسير، وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، فقال: "باب: ومن سورة الزخرف."[5]

وسميت أيضاً بإضافة "حم" إلى الزخرف، وقد رويت بهذا الإسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " كانت إذا أنزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما شاء، وكان أول ما أنزل من القرآن اقرأ باسم ربك، ثم ن والقلم... ثم حم الزخرف."[6] وسماها بعض التابعين بهذا الإسم،[1] وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.[2]

---

[1] سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ج4 – ص2300.

[2] البقاعي، نظم الدرر، ج4 – ص514.

[3] عبد الباقي، محمد فؤاد، معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، 1364، ص307.

[4] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص59-60.

[5] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الجامع الكبير - سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الزخرف، ج5 – ص296.

[6] ابن الضريس، أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس بن يسار الضريس البجلي الرازي، فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، دار الفكر، ط1، دمشق، 1987، ص33-34؛ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجردي الخراساني، دلائل النبوة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988، ج7 – ص143.

معنى الزخرف الذهب وهذا الأصل، ثم سُمِّيت كل زِينةٍ زُخْرُفاً، والزخرف في اللغة الزينة وكمالُ حُسْنِ الشيء، والمزخرف والمزين.[3] قد وردت كلمة الزخرف في القرآن الكريم أربع مرات،[4] وذكر أهل التفسير لمعنى هذه الكلمة في القرآن ثلاثة أوجه:

1- قوله تعالى في سورة الأنعام:﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:112]، وهو التزيين، إذ هم يزينون كلامهم بالكذب.

2- قوله تعالى في سورة يونس:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾[يونس:24]، وهو الحسن، أي حسنها.

3- قوله تعالى في سورة الإسراء:﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾[الإسراء:93]، وهو الذهب، أي بيت من الذهب.[5]

قد وردت كلمة الزخرف في هذه السورة من قوله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:35].

ذهب المفسرون في معنى الزخرف في هذه السورة إلى قولين: قال بعضهم إنه الذهب نفسه، وقال الآخرون إنه النقوش والزينة وما يتخذ الناس في منازلهم من الأمتعة والأثاث.[6]

والمعنى الأرجح في مراد الزخرف في هذه السورة هو الزينة، لأنه أعم ويشمل الذهب والفضة وكل ما يتعلق بالزينة.

---

[1] سمى سورة الزخرف مقاتل بن سليمان بهذا الإسم في تفسيره، وابن شهاب الزهري في كتابه تنزيل القرآن وغيرهما. وينظر: الإتقان للسيوطي، ص34-35.

[2] صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب باب تفسير سورة حم الزخرف، ج6 – ص130.

[3] أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص135؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص815؛ ابن منظور، لسان العرب، ج9 – ص132-133.

[4] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص330.

[5] ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، 1987، ص335-336؛ النيسابوري، أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الضرير الجيري، وجوه القرآن الكريم، دار السقا للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 1996، ص166؛ الدمغاني، أبو عبد الله الحسين بن محمد، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن، دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1980، ص217.

[6] انظر: الطبري، أبو جعفرمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، جامع البيان في تأويل آي القرآن، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000، ج21 – ص601-602؛ الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص254؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16 – ص87.

وسميت سورة الزخرف بهذا الإسم لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الزائل، وصورت خساسة الزخرف الدنيوي بأبلغ الصور، وما يفيد بأن الدنيا في غاية الحقارة في نفسها وغاية العداوة مع ربها.

ثانياً: عدد آياتها

سورة الزخرف تسع وثمانون آية، وهي عند أهل الشام ثمان وثمانون آية، واختلافهم في موضعين:

الأول: قوله تعالى: ﴿حمٓ(1)﴾، عدها الكوفي رأس آية ولم يعدها باقي أصحاب العدد.

الثاني: قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)﴾، " مَهِينٌ" عدها الحجازي والبصري رأس آية ولم يعدها الكوفي والشامي.[1]

المطلب الثاني: نزول السورة و فضائلها

أولاً: نزول السورة

سورة الزخرف مكية إجماعاً،[2] وقد نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بعد الإسراء وقُبَيْل الهجرة، وهي السورة الثالثة والأربعون في ترتيب المصحف، والسورة الثانية والستون على حسب ترتيب نزول القرآن الكريم.[3]

وقد نزلت بعد سورة الشورى،[4] وقبل سورة الدخان. قال الإمام الزركشي: "أول ما نزل من القرآن بمكة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[العلق:1] ثم ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾[القلم:1]... إلى أن قال: ثم حم السجدة ثم حم عسق ثم حم الزخرف ثم حم الدخان."[5] وأشار ابن عاشور إلى أنها نزلت بعد سورة فصلت وقال: " نزلت بعد سورة فُصّلت وقبل سورة الدخان"[6] وذكر قولاً آخر وقال: " والسور المفتَتَحةُ بكلمة (حم)

---

[1] انظر: أبو عمرو الداني، البيان في عد آي القرآن، ص223.

[2] انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5 – ص45؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16 – ص61.

[3] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص157.

[4] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص240؛ جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، تفسير الجلالين، دار الحديث، ط3، القاهرة، 2001، ص647.

[5] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1 – ص193.

[6] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – 157.

سبع سور مرتبة في المصحف على ترتيبها في النزول."[1] ويُرى أن ابن عاشور جانب الصواب بقوله الأول، وكان قصده أنها نزلت بعد سورة الشورى، وفي هذا الموضوع قال محمد عزت دروزه: "ويلحظ أن عروبة القرآن وصلته بالله تعالى كانتا موضوعاً رئيسياً في السور الثلاث السابقة وبخاصة في سورتي فصلت والشورى، ثم في هذه السورة فضلاً عمّا قبلها ممّا يدل على اشتداد لجاج الكفار في هذا الموضوع، وعلى صحة ترتيب هذه السور وتتابعها في النزول."[2] وبهذا يظهر أن سورة الزخرف نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الدخان كما هو في ترتيبها في المصحف.

واستثنى بعض المفسرين آية ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[الزخرف:45]، فذهب مقاتل إلى أنها مدنية،[3] ومنهم من قال إنها نزلت في المسجد الأقصى ليلة الإسراء وهذا قول الإمام القرطبي،[4] وإذا صحت رواية نزول هذه الآية في المسجد الأقصى لم يكن منافياً لمكيّتها؛ لأن المراد بالمكي ما أنزل قبل الهجرة.[5] وفصول هذه السورة مترابطة متناسقة، وبدايتها مرتبطة بنهايتها أيضاً، وهذه الآية منسجمة في السياق والموضوع انسجاماً تاماً وهذا ما يحملنا على الشك في تلك الرواية القائلة بمدنيّتها.[6]

ثانياً: فضائلها

سورة الزخرف من السور السبع التي ابتدأت بحروف حم المقطَّعة،[7] وتسمَّى هذه السور السبع بالحواميم.[8]

رويت بعض الأحاديث في فضل السور الحواميم، ومنها؛ ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "الحواميم ديباج القرآن."[1]

---

[1] المصدر نفسه، ج24 – ص76.

[2] دروزة، محمد عزة، التفسير الحديث، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 2000، ج4 – ص490-491.

[3] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص240؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16 – ص61؛ ابن الجوزي، زاد المسير، ج7 – ص301.

[4] انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16 – 95؛ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1 – ص197؛ الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، ج1 – ص101.

[5] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص157.

[6] انظر: عزة دروزة، التفسير الحديث، ج4 – ص488.

[7] هذه السور هي: سورة غافر، سورة فصلت، سورة الشورى، سورة الزخرف، سورة الدخان، سورة الجاثية، سورة الأحقاف.

[8] انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1 – ص248؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24 – ص76.

علماً بأنني لم أجد أية رواية صحيحة في فضل سورة الزخرف بحسب حدود بحثي، ولكن رويت فضائل في بعض آيات السورة.

وروي في فضل قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[الزخرف:13-14]، ما ذكره ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.[2]

المطلب الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها

بداية سورة الزخرف مرتبطة بنهايتها ارتباطاً وثيقاً، حيث إن مطلع السورة يقرر ويبين حال المشركين العجيب من اعترافهم بربوبية الله تعالى وبإيجاده الخلق وحده مع أنهم يشركون بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الزخرف:9]، وجاء نفس المعنى في آخر السورة مقرراً ومؤيداً لغرابة حالهم العجيب، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[الزخرف:87].[3]

ولما ذكر قوله تعالى ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾[الزخرف:5] في طليعة سورة الزخرف الذي يظهر سعة رحمة الله لجميع الخلق، ويأمرنا بعدم ترك الكافرون مع سوء اختيارهم، ويرشدنا إلى دعوتهم ووعظهم، ختم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم الصَفْحَ عن المعاندين والمصرين في الإنكار بعد الإرشاد والتبليغ، حيث قال تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[الزخرف:88-89]؛ لأن على رسولنا صلى الله عليه وسلم البلاغ لا الإجبار والعنف، وكذلك تناسب افتتاح السورة مع خاتمتها.

---

[1] الحاكم، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1990، ج2 – ص474. قال الألباني: وأخرج الحاكم بإسناده صحيح عن عبد الله بن مسعود، فذكره موقوفاً عليه، وهذا هو الصواب: السلسلة الضعيفة، ج8 – ص32.

[2] مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، (1342)، ج2 – ص978.

[3] انظر: نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج7 – ص100.

المطلب الرابع: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

سورة الزخرف تتوسط سور آل حم السبع حيث سبقها ثلاث سور وتبعها ثلاث سور، وجاءت بعد سورة الشورى وقبل سورة الدخان.

أولاً: مناسبة السورة لما قبلها

والمناسبة ما بين سورة الزخرف وسورة الشورى التي سبقتها واضحة صريحة، ومنها:

أن سورة الشورى خُتِمَتْ بالحديث عن القرآن الكريم الذي أُنْعِمَ به على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فصار به هادياً إلى صراط الله المستقيم، وأنه روح ونور وهداية من عند الله يهدي به من اتبع رضوانه سبل السلام، فقال تعالى في نهاية سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى:52-53]، وابتدئت سورة الزخرف بالقسم والبيان لهذا النور الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو القرآن الكريم بلسان عربي مبين، ليعقله قومه ويفهموا ما فيه من أحكام وتشريعات، وقال تعالى: ﴿حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف:1-4][1]

وكذلك تشابهت السورتان من حيث افتتاحيتهما، فكلتا السورتين افتتحت بنفس الحروف المقطعة وهي حم، وبينتا وصف القرآن الكريم ومصدره: وهو الوحي الإلهي، حيث قال تعالى في مطلع سورة الشورى: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ۝... وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[الشورى:1-7]، وقال تعالى في طليعة سورة الزخرف: ﴿حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ

---

[1] انظر: الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص161؛ البقاعي، نظم الدرر، ج7 – ص3-4؛ الغماري، أبو الفيض أحمد بن محمد بن الصدّيق بن أحمد الحسني، جواهر البيان في تناسب سور القرآن، مكتبة القاهرة، القاهرة، ص96؛ محمد أبو موسى، آل حم الشورى-الزخرف-الدخان دراسة في أسرار البيان، مكتبة الوهبة، ط1، القاهرة، 2010، ص246؛ الخطيب، محمد عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، 1967، ج5 – ص102.

ٱلْمُبِينِ ۞ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ فهناك تناسب في الافتتاح.[1]

وتناسبت السورتان أيضاً في الحديث عن القرآن الكريم في العديد من المواضع، وفي إيراد الأدلة الباهرة على وجود الله ووحدانيته، وفي وصف أحوال الآخرة ومخاوفها، وجزاء المؤمنين ومصير الكافرين، وفي قدرة الله وإرادته وقضائه وحكمه في خلقه.[2]

ثانياً: مناسبة السورة لما بعدها

تتجلى مناسبة سورة الزخرف مع سورة الدخان التي تليها في ترتيب المصحف في عدة وجوه، منها:

افتتاح كلتا السورتين بنفس الحروف المقطعة ونفس القسم بالقرآن الكريم تنويهاً بعظمته، فقال تعالى: ﴿حمٓ ۞ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، ولم يأت القسم بالقرآن الكريم بتركيب "والكتاب المبين" في القرآن إلا في هاتين السورتين المتتاليتين، وفي هذا تلميح إلى التقارب الشديد بين السورتين.[3]

وختمت سورة الزخرف بالتهديد والوعيد للمشركين في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ(83)﴾، وقوله: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(89)﴾، وافْتُتِحَتْ سورة الدخان ببيان هذا اللإنذار والتهديد الشديد، قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ(10)﴾، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ(16)﴾.[4]

ولما ذكرت سورة الزخرف خصائص القرآن وتنزيله بالوحي من عند الله وتفصيله وكونه قرآناً عربياً إلى ما ذكر تعالى من مميّزاته إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ(44)﴾، ولما ابتدأت سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله وهو الليلة

---

[1] انظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج13 – ص117.

[2] انظر: الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص162؛ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج13 – ص117؛ نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج7 – ص100-102.

[3] انظر: الغماري، جواهر البيان، ص97؛ محمد أبو موسى، آل حم الشورى-الزخرف-الدخان، ص550.

[4] انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج8 – ص33؛ الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص163؛ الغماري، جواهر البيان، ص97.

المباركة إلى السماء الدنيا، فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(3)﴾. وهو تأييد لما ذكر سابقاً من الإشادة بعظمة القرآن.[1]

وتناسبت السورتان في الموضوعات أيضاً، ومن دلالات ذلك ما ختمت به سورة الزخرف بالتهديد والوعيد للكافرين، حيث قال تعالى مخبراً عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (88)﴾، ثم ذكر في سورة الدخان نظير ذلك فيما حكى موسى عليه الصلاة والسلام عن قومه عند قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (22)﴾، وأيضاً ذكر في سورة الزخرف في إعراض نبينا صلى الله عليه وسلم عن الكافرين، وقال: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(89)﴾، وجاء نظيره في سورة الدخان على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (20) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ(21)﴾، وهذا قريب من ذلك.[2]

المطلب الخامس: مقاصد سورة الزخرف و موضوعها العام

أولاً: مقاصد سورة الزخرف

مقاصد سورة الزخرف الأساسية تهدف إلى غرس أصول العقيدة الإسلامية في النفوس كسائر السور المكية غالباً، وهي: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والإيمان بالرسالة والبعث والجزاء.

ومن أبرز مقاصد سورة الزخرف هي:

أ- التحدي بإعجاز القرآن؛ لأنه معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الخالدة إلى يوم القيامة، وبيان مصدر القرآن العظيم وهو الوحي الإلهي.

ب- تنزيه الله عما نسبه إليه المشركون مما لا يليق به من إسناد الولد والشركاء لله تعالى.

ج- التعجب من حالهم، إذ اعترفوا بأن الله خلقهم والمخلوقات كلها، ومع ذلك اتخذوا آلهة يعبدونها شركاء لله، وزعموا أن الملائكة بنات لله وهم يعتقدون أن البنات أحطّ قدراً من الذكور.

---

[1] انظر: الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص162-163؛ محمد أبو موسى، آل حم الشورى-الزخرف-الدخان، ص550-551.

[2] انظر: الألوسي، روح المعاني، ج25 – ص110؛ المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، ط1، 1946، ج25 – ص118.

د- إبطال عبادة كل ما دون الله على تفاوت المعبودين في الشرف، وتصحيح انحرافهم وجهلهم وسفههم بتلك العبادة الباطلة.

ه- إيراد قصص بعض الأنبياء من أولي العزم كإبراهيم الخليل وموسى وعيسى عليهم السلام ليعتبروا بها ويتعظوا بأحداثها ونتائجها.

و- بيان وصف نعيم الجنة خالصة للمؤمنين الذي لا مثيل له، وبيان بعض أحوال القيامة وشدائد الأشقياء أهل النار، وخسرانهم شفاعة الأصنام والآلهة المدعاة.[1]

ثانياً: موضوعها العام

لا يخفى بأن لكل سورة من سور القرآن وحدة موضوعية وجوّ خاص يظللها حيث تعالج موضوعاً رئيساً، تندرج تحته موضوعات فرعية. ويدور محور سورة الزخرف حول إثبات التوحيد لله بتصحيح الإنحرافات العقائدية التي اعترض فيها الكفار على النبي صلى الله عليه وسلم، ورد النفوس إلى الفطرة السليمة وإلى الحقائق الأولى، والتحذير من الانخداع بالدنيا وزخرفها وهو عنوان السورة.[2]

ولهذا الغرض، فإن الجو العام في هذه السورة يركز على أنواع الكفر وبيان مذاهب القول فيه، وما أسسوا عليه باطلهم الذي خاصموا به القرآن، ومن أنواع هذا الكفر:

أ- اعتراف الكفار بأن الله هو الخالق المبدع؛ ولكنهم ينحرفون عن مقتضى هذه الحقيقة ويتبعون الخرَفات والأساطير، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ (9)... وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (15)﴾، وجعلوا هذا الجزء إناثاً وقالوا: "إن الملائكة بنات الله"، مع أنهم يكرهون مولد البنات لهم: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم (16) بِٱلْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17)﴾

---

[1] انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5 – ص3174-3176؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص158؛ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج13 – ص118-119؛ الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، ط4، بيروت، 1981، ج3 – ص149.

[2] انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5 – ص3176.

ب- كفرهم أيضاً بجعلهم الملائكة إناثاً وما شهدوا لخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ(19)﴾.

ج- فساد احتجاجهم بالقدر على معصية الله والشرك به، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20)﴾.

د- بيان ضلالهم بقولهم الذي اوردته السورة يقول تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ(22)﴾، ومنطقهم الخاطئ في اتباع آبائهم وأجدادهم لا ينفعهم شيئاً.

ه- جهلهم حكمة اختيار الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وحسدهم له في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31)﴾، وفي هذه الآية ردٌّ عليهم ببيان القيم الحقيقية وزهادة القيم التي يقدسونها.

ز- الرد عليهم في مجادلتهم الباطلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حق عيسى عليه السلام حيث إنهم إذا قيل لهم: "إنكم وما تعبودون من دون الله حصب جهنم"، حرفوا الكلام الواضح وجادل به مع النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: "أآلهتنا التي نعبدها خير أم عيسى الذي يعبده قومه؟ فإذا كان عيسى في النار، فلنكن نحن وآلهتنا معه"، وتكشف الآية الكريمة عن التوهم في هذا الجدل وتُبرّئ عيسى عليه السلام مما ارتكبه أتباعه من بعده، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ(59)﴾[1]

[1] انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5 – ص3174-3176؛ محمد أبو موسى، آل حم الشورى-الزخرف-الدخان، ص247-248.

الفصل الثاني: التناسق الموضوعي بين سورتي مريم والزخرف

لقد مرّ سابقاً معنى كلمة التناسق وكلمة الموضوعي لغة واصطلاحاً[1]، وأما التناسق الموضوعي -بصيغته المركبة- مصطلح حديث، وإن كانت الإشارات له موجودة في كلام المتقدمين، ولكنهم قد تناولوه غالباً ضمن موضوع المناسبات القرآنية. وكان علماء الإعجاز القرآني من المتقدمين قد اهتموا بإبراز جوانب الإعجاز في القرآن من حيث شدة تناسقه وانسجام عناصره ووحدته العُضْوِيَّة. ومنهم الجرجاني الذي قال: "فإنْ قلتم عنِ الألفاظ فماذا أعجزهُم منَ اللفظ أم ما بهرهُم منه، فقلنا: أعجزَتْهُم مزايا ظهرتْ لهم في نظمهِ، وخصائصُ صادفوها في سياقِ لفظهِ، وبدائعُ راعتهم من مبادىءَ آيهِ ومقاطِعها، ومجاري ألفاظِها ومواقعها، وفي مضربِ كلَّ مثلٍ، ومساقِ كلَّ خبرٍ، وصورةِ كلَّ عظةٍ وتنبيهٍ وإعلامٍ وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، ومع كلَّ حُجةٍ وبُرهانٍ وصفةٍ وتبيان. وبَهرهُم أنَّهم تأمَّلوهُ سورةً سورةً، وعُشراً عُشراً، وآيةً آيةً، فلم يجدوا في الجميع كلمةً يئُوب بها مكانُها، ولفظةً يُنكرُ شأنُها، أو يُرى أنَّ غيَرها أصلحُ هناك أو أشبهُ، أو أحرى وأخلق. بل وجدُوا اتّساقاً بَهرَ العُقولَ، وأعجزَ الجمهورَ ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً..."[2] وفي كلامه هذا إلماح إلى نظرته إلى القرآن باعتباره وحدةً متناسقةَ المعاني متماسكةَ المباني فيكون كالكلمة الواحدة.

وتناول الإمام البقاعي هذا الموضوع بتعبير رائع وأعطى لنا صورة جميلة فقال: "تكون السورة كالشجرة النضيَّة العالية، والدَوْحَة البهيجة الأنيقة الخالية، المزَيَّنَة بأنواع الزينَة المنظومة بعد أنْيَق الورق بأفنان الدرّ وأفنائُها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصلَ أولَها، كما لاحمَ انتهاؤُها ما بعدها، وعانقَ ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرةً كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغُرّ، البديعةِ النظم العجيبة الضمّ بلِين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها."[3]

ومن علماء إعجاز القرآن المعاصرين محمد عبد الله دراز يشرح التناسق الموضوعي في القرآن لنا بقوله: "ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارّتها رباط موضِعي من

---

[1] انظر إلى صفحة 7-10.

[2] الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي، كتاب دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، ط3، القاهرة، 1992، ص39.

[3] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، مكتبة المعارف، ط1، الرياض، 1987، ج1 – ص149.

أَنْفَسِها، كما يلتقي العَظْمانِ عند المِفْصَل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كَثَبٍ، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قِواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العُضْوِيَّة."[1]

وعلى ما سبق من بيانات العلماء في هذا الموضوع يمكن أن نخلص إلى أن التناسق الموضوعي في السورة القرآنية: هو المعنى الذي يربط بين موضوعات السورة بعضها ببعض، ويُظْهِر تماسك بنائها وتلاؤمَها، واتساقَ معانيها وتتابعَها، وتآلفَها في نظام واحد سعياً لخدمة مقصود واحد.

التناسق الموضوعي في القرآن الكريم أيضاً بمعنى أن الآيات الكريمة التي نزلت في موضوع واحد، وقد ذكرت في سور متعددة، واختلفت في نزولها وقتاً ومكاناً، ومناسبة هذه الآيات تكون موضوعاً واحداً متكاملاً متناسقاً، لا تباين فيه ولااختلاف ولا تضارب.

قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[الزمر:23]، فوصف القرآن بأنه كتاب متشابه، وجعل هذا صفةَ مدحٍ له؛ وذلك لأن القرآن يشتمل على أنواع من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص والمواعظ، وهي تتكرر في كل سورة من سوره، وكلها أنواع متشابهة المقاصد متقاربة الأغراض، لا تخرج عن الوظيفة الدينية للقرآن.

والقرآن الكريم له أهداف، إذ هو كتاب الهداية من رب العالمين، ولتحقيق هذه الأغراض والوصول إليها لا بد أن يتطرق إلى الموضوع الواحد عدة مرات، مرة بالتصريح وأخرى بالتلميح، وتارة بضرب الأمثال وأخرى بتأييد المقال. وأيضاً كل سورة من سور القرآن الكريم لها حدود ورسوم وأهداف تدور حولها. والملاحظ أن سور القرآن نوعان: نوع يشتمل على غرض واحد، وأغلب ذلك السور القصار في آخر المصحف، ونوع آخر لم يقتصر فيه على هدف واحد، بل جمع أغراضاً عديدة، وتطرَّق إلى موضوعات كثيرة ومع ذلك لها هدف واحد، وهذه معجزة من أروع المعجزات التي امتاز بها القرآن الكريم.

---

[1] دراز، محمد عبد الله ، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ص155.

وإن كانت السورة الواحدة تعددت قضاياها، فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويروم بجملته غرضاً واحداً. والسورة الواحدة لها جوّ خاص في اللفظ والسياق والفواصل، وكل موضوع ذكر في السورة سواء كان قصة أو غيرها فهو مناسب تماماً للسورة.[1]

والسور المكية أكثر سور القرآن عدداً، والموضوع الرئيس فيها هو العقيدة، بل من الممكن أن يقال في الحقيقة أن العقيدة هي الموضوع الرئيس في القرآن كله، سواء أ كانت مكية أم مدنية؛ ولكنها في السور المكية تستغرق المساحةَ كلها، وتستوعب الحديث كله. والأصول العقائدية التي تناولتها السور المكية غالباً: ما تقرر موضوع الوحدانية لله تعالى وتنزيهُهُ بنفي الولد والشركاء عنه، وتقرير بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونزول القرآن عليه، وإثبات حقيقة البعث يوم القيامة.

إذا استقرأ أي واحد القرآن الكريم كله من أوله إلى آخره، يرى فيه التناسق والانسجام العظيم بين سوره من حيث موضوعاتها وقصصها وآياتها، وليس هذا التناسق في داخل السورة فقط، بل هذا التناسق موجود وواقع بين السور القرآنية سواء كانت السور متتابعة أو متباعدة تبعاً لترتيب المصحف.

وفي هذا الفصل سيحاول الباحث أن يستفرغ الوسع في تبيينه التناسق الموضوعي الأساسي والفرعي الموجود بين سورتي مريم والزخرف؛ وذلك بالاعتماد على القواعد الأساسية في علم التفسير الموضوعي، والنَّظَرات التأمُلِيَّة المقارنة بين السورتين.

المبحث الأول: التناسق الموضوعي الأساسي بين سورتي مريم والزخرف

إن لكل سورة من سور القرآن الكريم موضوعات أساسية تناولتها في معظم السورة للوصول إلى هدف واحد، وتندرج تحت هذه الموضوعات الأساسية موضوعات فرعية تطرقت إليها السورة على وجه الإجمال. وسورتا مريم والزخرف مكيتان، وكما مرّ من قبل بأن الموضوع الأساسي للسور المكية غالباً هو العقيدة، ومن هذه الموضوعات الأساسية لسورتي مريم والزخرف: إثبات وحدانية الله سبحانه، وتنزيه الله تعالى عن الولد، وإثبات البعث، وإثبات نبوة رسول الله صلى الله وسلم، وفي المطلب التالية سيكون تفصيل ذلك.

---

[1] حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص39، 41، 48، 129؛ الصعيدي، عبد المتعال، النظم الفني في القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، 1992، ص28، 31، 36، بتصرف.

المطلب الأول: إثبات وحدانية الله سبحانه

وحدانية الله هي أساس الإيمان الصحيح السليم، وهي الصراط المستقيم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى عبادة رب العزة والجلال وحده. وبيان أن الغاية من خلق الجن والإنس هي توحيد الله تعالى وعبادته، وإن العقيدة الصحيحة المتمثلة في إفراد الله هي طريقة السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة. لذلك نرى أن الأنبياء جميعاً قد أرسلوا لسعادة البشرية في الدارين ولغاية دعوة الناس إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[سورة الأنبياء: 25].

وقد قسّم علماء أهل السنة والجماعة التوحيدَ إلى ثلاثة أقسام، وهي: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات. ومعنى توحيد الألوهية هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وتوحيد الربوبية هو العلم والإقرار بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه، والمدبر لأمور خلقه جميعهم، وتوحيد الأسماء والصفات هو الإعتقاد الجازم بأن الله عزّ وجلّ متصف بصفات الكمال كله، ومنزَّه عن جميع صفات النقصان.[1]

إن التوحيد غاية أساسية وموضوع رئيس في القرآن الكريم كله، وخصوصاً في السور المكية. وسيبرز الباحث مظاهر توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات في سورتي مريم والزخرف المكيتين وتناسقهما في هذا المطلب.

أولاً: في سورة مريم

التوحيد أساس العقيدة الإسلامية الصحيحة، وعالجته سور القرآن الكريم المكية لغاية تأصيل الإيمان السليم في قلوب المؤمنين، حيث قال تعالى في سورة مريم مخبراً عن قول عيسى عليه السلام لقومه وهو في المهد صبيّ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ(36)﴾، تعني الآية تعميمَ ربوبية الله تعالى لكل الخلق. فقوله تعالى :"وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ" يدلّ على التوحيد وأن لا ربّ للمخلوقات غيرُ الله تعالى، وقوله: "فَاعْبُدُوهُ" والأمر فيه بالعبادة جرى مرتَّباً على ذكر وصف الربوبية، وعلى هذا تَلْزَمُنا عبادة الله تعالى لكونه ربّاً لنا وللعالمين، ومنعماً على الخلائق بنعمه، وقوله

---

[1] انظر: ابن جبرين، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم، شرح العقيدة الطحاوية، روس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، (نسخة للمكتبة الشاملة)، ج1 – ص8.

"هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" يعني القولُ بالتوحيد ونفيُ الولد والصاحبة عن الله سبحانه، هو الطريق المستقيم الذي يفضي بقائله ومعتقده إلى النجاة.[1]

قال تعالى في سورة مريم: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا(65)﴾، والآية جلية في إثبات توحيد الربوبية، وفي أنه خالق السماوات والأرض ومدبرهما ومالكهما، وما بينهما من الخلائق والأشياء، وحده لا شريك له، ولا معبودَ ولا ربَّ سواه. وفي قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ إشارة إلى أن الله تعالى لا شريك له في اسمه "الله" سبحانه، فإن المشركين لم يسمّوا شيئاً من أصنامهم باسم الله ولم يجترئوا على ادّعاءِ قدرة الخلق لآلهتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[سورة الزخرف: 87]، بل يقولون للواحد منها إلهٌ، وذلك لظهور أحدية الله تعالى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله لا يسمّى بالرحمن غيره، ولعله يكون السرَّ في أنه لم يذكر اسم الرحمن مكرَّراً في سورة مثل هذه السورة الكريمة لتناسق ذلك مع المعنى الذي تُؤَدِّيهِ الآية ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.[2]

التوحيد هو رسالة مشتركة للأنبياء والمرسلين، إذ كانت غاية الرسالة تأسيس العقيدة الصحيحة، وتصحيح الإعتقاد الفاسد مثل الشرك، فهذا هو إبراهيم عليه السلام يقول في دعوته أباه إلى التوحيد: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا(42)﴾، وَوصفَ الأوثان التي عبدوها بالصفات الثلاثة القادحة في الربوبية، وهي عدم السمع والبصر وعدم جَلْبِ المنفعة والتسبب بالضرر، مع أن الإنسان موصوف بهذه الصفات، فكيف كانت تليق العبادة لهذه الأشياء العاجزة، وإن غاية العبادة التعظيم فلا يستحقها إلا ذو كمال الصفات، وهو ربّنا الذي يجيب دعوة الداعي ويسمع ويبصر كل الأشياء.[3]وفي محاورة إبراهيم عليه السلام هذه مع أبيه إخبار للناس عن ما كان إبراهيم عليه السلام عليه من توحيد الله و ما كان من المشركين.

---

[1] انظر: ابن عطية، المحرر الموجيز، ج4 – ص16؛ الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربى، ط3، بيروت، 1420، ج21 – ص541؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط8، 1999، ج5 – 230-231؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص104.

[2] انظر: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، ج4 – ص15؛ النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي،غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1416، ج4 – ص498؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص143.

[3] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص545.

لماّ ولد عيسى عليه السلام من غير أب بطريقٍ خارقٍ للعادة، أمرت مريم عليها السلام بالصيام عن الكلام، وأنطق الله إبنَها وهو في المهد طفل صغير، وكان أول ما نطق به هو الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته رداً على من يزعم ربوبيته، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(30)﴾، أي الملك الأعظم الذي له صفات الكمال، ومنزه عن الصاحبة والولد والشريك، وفي هذا إشارة إلى الاعتقاد الصحيح الذي أرسل لأجله جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.[1]

ومن مظاهر التوحيد في سورة مريم دعاء الأنبياء والصالحين إلى اللهِ واستعانتهم به في مناجاتهم، هذا سيدنا زكريا عليه السلام يدعوا ربّه ليهب له ولداً صالحاً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا(5)﴾، وهذه مريم عليها السلام لَجأتْ إلى رحمة الرحمن الرحيم حذرةً خائفةً من الملك الذي تمثل لها بشراً سوياً: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا(18)﴾، وفي ذكرها لله تعالى بعنوان الرحمانية مبالغة في الاستعاذة به واستجلابِ آثارِ الرحمةِ الخاصة لها،[2] وأيضاً يدعو إبراهيم عليه السلام ربّه ألا يكون خائباً بدعائه له تعالى بالمغفرة: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا(48)﴾، وفي إعلانه هذا الرجاء بين ظهرانيهم تعريضٌ لشقاوتهم في دعاء آلهتهم.

يقول الله تعالى في كفار قريش إنهم اتخذوا الأصنام وسائر المعبودات الباطلة آلهة متجاوزين الله: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)﴾، مع أن الحق يقتضي أن يتّخذوا الله إلهاً واحداً، إذ بذلك تقرّر الاعتقاد الحقّ من مبدأ الخليقة، وعليه دلّت العقول الراجحة.[3]وأيضاً يحذر سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه من عبادة الأوثان حيث يقول: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا(44)﴾؛ لأن عبادة الأصنام عبادة له إذ هو الذي يُسوّلها للإنسان ويُغْري بها.

---

[1] انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11 – ص102؛ البقاعي، نظم الدرر، ج4 – 531.

[2] أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج5 – ص260.

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص163.

ثانياً: في سورة الزخرف

لقد اتّخذت سورة الزخرف أسلوب الحكيم في عرض التوحيد في آيات كثيرة، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9)، وفي هذه الآية التعجب من حال الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم من دعوته إلى إله واحد وترك عبادة الأصنام، وعجبوا من هذا مع أنهم يقرّون بوجود الله وخلقه للسموات والأرض، ثم هم لا يعملون بمقتضى هذا الاعتراف الفطري بتوحيد الله تعالى وإخلاص التوجه إليه، فكانوا يتّخذون لله شركاء بغير سلطان أتاهم، ويعبدون من دونه الأصنام غيرها. و﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ هو الله تعالى، وليست هاتان الصفتان من مقول جوابهم، وهم كانوا يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض؛ ولكنهم لا يعرفون الله بصفاته الإيجابية التي جاء بها الإسلام وتنفي فكرة الشرك، كما جاء عنهم نفس المعنى في آخر هذه السورة، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(87)﴾،[1] وفي هاتين الآيتين تذكيرٌ بإقرار المشركين بالربوبية، ودعوة لهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة للعزيز العليم بعد انصرافهم عن عبادة الله إلى عبادة آلهة أخرى بمرور الزمان.

يدعو عيسى عليه السلام قومه بني إسرائيل إلى إفراد الله بالألوهية والربوبية وإخلاص العبادة والطاعة له وتقواه، حيث قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(64)﴾، وهذا إعلان بوحدانية الله لبني إسرائيل؛ لأنهم كانوا موحدّين ولكن قد ظهرت بدعةٌ في بعض فرقهم وقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾[سورة التوبة: 30]. وتقديم نفسه على قومه في قوله: ﴿ربّي وربّكم﴾ لقصد سدّ ذرائع الغلوّ في تقديس عيسى عليه السلام، وذلك إخبار من الله تعالى أنه ستغلو فيه فِرق من النصارى فيزعمون بُنُوَّتَه من الله على الحقيقة. وإفراد الله تعالى بالألوهية هو الطريق المستقيم، وهو دين الله الذي لا يُقْبَلُ من أحد من عباده غيرُه.[2]

وآية أخرى في مظاهر التوحيد قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)﴾، حيث جاءت هذه الآية عقيب آية تردّ على من ينسبون لله ولداً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81)﴾، فالله نزّه ذاتَه موصوفةً بربوبية السموات والأرض والعرش عن

---

[1] انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5 – 3177؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص168.

[2] انظر: الطبري، جامع البيان، ج21 – ص636؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص248.

اتخاذ الولد، واختصاص وصف ربوبيّته بأعظم الموجودات مثل السموات والأرض والعرش لافادة انتفاء أن يكون له ولد بسبب عدم الفائدة من الولادة؛ لأن خالق العوالم والمخلوقات كلها يكون غير مسبوق بعدم، فوجود الولد له عبث.[1]

ولما نزه الله تعالى نفسه عن الولد، دلّ على أنه لا شريك له في الألوهية مطلقاً في الكون بعد نفي الشريك فيها بالولدية، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(84)﴾، أي هو المعبود في السماء والمعبود في الأرض على سبيل الألوهية والربوبية لا على معنى الإستقرار، وفيه نفي الآلهة السماوية والأرضية، إذ المشركون كانوا يجعلون الأصنام في الأرض شركاء لله، ويجعلون الملائكة في السماء شركاء بنسبتها إلى الله بناتٍ، وهكذا تبطل هذه الآية زعم ألوهية هذه الآلهة المزعومة، وتوضّح لهم أن لا شيءٌ سواه تصلح عبادته فينبغي عليهم أن يفردوا العبادة له ولا يشركوا به شيئاً.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)﴾، وكذلك في هذه الآية نزّه الله نفسه عن الولد والشريك بأن له السمواتِ والأرضَ وما بينهما، وبأنه مالك كلّ شيء وخالقه ولا ينبغي أن يكون له ولد إذ هو صادر عن العجز والنقص، والله منزّه عنه. و"تبارك" بمعنى الزيادة في الخير والبركة، وصيغتها هكذا تدلّ على أن البركة ذاتية لله تعالى، وعلى هذا يقتضي استغناؤه عن الزيادة باتخَاذِ الولد واتخاذِ الشريك. وأكد قوله تعالى ربوبيته لأعظم الموجودات ثلاث مرات بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(82)﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ(84)﴾، وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا(85)﴾.[3]

مظاهر توحيد الأسماء والصفات في سورتي مريم والزخرف:

إن توحيد الله في أسمائه وصفاته هو الإيمان الجازم بأن الله تعالى له كمال الأسماء والصفات كلها، ومنَزَّه عن جميع صفات النقصان، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[سورة

---

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص266.

[2] انظر: الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، تأويلات أهل السنة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2005، ج9 – 190؛ الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص270.

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص269.

الشورى: 11] ولا مثيل له في السمي: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)﴾، وهو مسمًّى بأسمائه الحسنى الذي سمَّى بها ذاته، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[سورة طه: 8].

إذا أنعمنا النظر في سورتي مريم والزخرف نُلاحِظُ مظاهر توحيد الله في أسمائه وصفاته واضحاً جلياً، حيث إن الرحمنَ من أسماء الله الحسنى، وقد ذُكِرَ في كلتيهما مراتٍ كثيرةٍ.

الرحمن يعنى أن الله تعالى الممتلئ رحمة والعاطف بجلائل النعم على جميع خلقه؛ كافرهم ومؤمنهم، صالحهم وفاجرهم قد خلقهم ورزقهم،[1] حيث قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[سورة الأعراف: 156]، وصفة الرحمة هي من صفات الكمال الرباني التي تتجلى في كل المخلوقات ويرى أثرها فيها.

وقد ورد اسم الرحمن في سورة مريم ست عشرة مرة، ومن هذه الآيات التي ذكرت فيها اسم الرحمن:

1. قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18)﴾
2. قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)﴾
3. قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)﴾
4. قوله تعالى: ﴿...إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)﴾
5. قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61)﴾
6. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69)﴾
7. قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)﴾
8. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96)﴾

وقد وردت صفة الرحمة لله في سورة مريم أربع مراتٍ في هذه الآيات:

1. قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)﴾

---

[1] الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، الكشف والبيا، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2002، ج1 – ص99.

2. قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21)﴾
3. قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)﴾
4. قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)﴾

وذكر أيضاً اسم الله الرحمنُ في سورة الزخرف سبع مراتٍ في هذه الآيات:

1. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)﴾
2. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا...(19)﴾
3. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)﴾
4. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33)﴾
5. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)﴾
6. قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)﴾
7. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81)﴾

وذكرت صفة الله الرحمة أيضاً في سورة الزخرف مرتين في نفس الآية:

1. قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32)﴾

التناسق بين السورتين في موضوع إثبات وحدانية الله تعالى:

يتبين لنا مع الذي ذكرنا من قبل أن كل سورة من سور القرآن الكريم تهدف إلى تأسيس التوحيد وإثبات وحدانية الله تعالى عند الناس وإلى خلاصهم من العقيدة الباطلة، ونرى هذا الهدف

أيضاً في سورتي مريم والزخرف المكيتين متناسقاً متناسباً والذي يظهر لنا علاقتهما القوية فيما بينهما، ويمكننا أن نشير إلى تناسقهما في هذا الموضوع بما يلي:

1- أن كلتا السورتين تهتمُّ بتوحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته في آيات كثيرة، وفي هذه الآيات الكريمة التي تعتني بهذا الأمر تناسق كبير حيث أن الله تعالى يقول في سورة مريم مخبراً عن قول عيسى عليه السلام عندما يعلن لقومه عقيدة التوحيد وعدم وجود صفة الربوبية عنده، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾، وأمّا في سورة الزخرف يخبر قوله تعالى عن كلام عيسى عليه السلام السابق عندما كان في المهد صبياً، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64)﴾، باختلاف يسير.

2- عندما نقرأ قوله تعالى في إثبات توحيد الله في سورة مريم حيث يبين الله تعالى أنّه خالق السموات والأرض وما بينهما ومالكهما ومدبّرهما، ومنزه عن الولد والشريك، ولا ربٌّ ولا معبود سواه، وقال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)﴾، فأفاد نفس المعنى وأكد ربوبية الله تعالى وألوهيته في سورة الزخرف بآية متشابهة، قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)﴾.

3- لمآ قال تعالى في سورة مريم: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)﴾، وهذه الآية تفيد أن الله لا مماثل في اسمه "الله"، وهذا الإسم ذاتيّ وخاصّ لله تعالى، حتي إن المشركين كانوا لا يسمّون أصنامهم باسم "الله"، وأيد هذا المعنى اعتراف المشركين بأن الله تعالى خالقهم وخالق كلّ شيء في سورة الزخرف حيث قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)﴾[1]

4- لا شكّ أن الرحمن اسم من أسماء الله تعالى، وقد ذكر اسم الرحمن في جميع القرآن سبعة وخمسين مرة، ومن العجيب أن هذا الإسم ورد في سورة مريم أكثر من وروده في السور

---

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص143.

الأخرى، وقد تكرر ست عشرة مرة، والسورة التي تتلو سورة مريم في عددِ مراتِ ورودِ اسمِ الرحمن هي سورة الزخرف، حيث ورد اسم الرحمن فيها سبع مرات. وهذا فيه اشارة إلى وجود تناسقٍ بين السورتين في توحيد الأسماء والصفات لله تعالى.

المطلب الثاني: تنزيه الله تعالى عن الولد

إن الله سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقصان، ومنزه عن أن يكون له صاحبة وولد، وهو الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، وهو مستغنٍ عن كلّ الأشياء التي لا تتناسب وجلال وجهه وعظيم سلطانه، وله ما في السموات والأرض وما بينهما، وإنه خالق كل شيء وهو يعلم كلّ شيء، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[سورة الأنعام: 101].

رسّخ القرآن الكريم العقيدة الصحيحة بنفيه الولد عن الله تعالى الذي ينسبه المشركون لله تعالى وهو منزه عن الولد، وغني عن العالمين، ولا شبيه له من خلقه، وهو خالقهم ومنشئهم. وسورة مريم بذاتها وحكايتها قصة مولد عيسى عليه السلام دليل عظيم على تنزيه الله تعالى عن الولد، وعلى الردّ على النصارى الذين يدعون ألوهية عيسى عليه السلام وأنه ابن الله، والله سبحانه تعالى بعيد عن ذلك.

أولاً: في سورة مريم

لما ذكرت سورة مريم قصة مريم عليها السلام وحملِها عيسى عليه السلام من غير أب، إذ تكلّم عيسى عليه السلام وهو في المهد صبي معلناً عبوديته لله تعالى ورادّاً على من يزعم بنوته لله، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30)﴾، ثم وصَف قوله تعالى عيسى عليه السلام بصفات جليلة عظيمة، وبعدها قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34)﴾، هذا تكذيب لهم في زعمهم الباطل والشنيع بأبلغ الوجوه والمنهاج البرهاني حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ببنوته لله تعالى.[1] وقد بين الله تعالى الحق في المسيح عيسى عليه السلام حيث إنه عبد من عباد الله تعالى، وخلقه من غير أب آية للناس وجعله نبياً رسولاً، ثم قرّر قوله تعالى في عبودية عيسى عليه السلام ونزّه ذاته تعالى عما لا يليق بجلال الألوهية من اتخاذ الولد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)﴾، إذ هو أزلي وأبدي لا حاجة له به، ومقدس ومنزه عن كل نقص كاتخاذ الولد وغيره، وهو الله هذا شأنه كيف يتوهم

---

[1] أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5 – ص264، (بتصرف).

أن يكون له ولد؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)﴾[سورة آل عمران].[1] ثم قال تعالى حكاية عن قول عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾، عطف على قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾، وهذا تتمة كلام عيسى عليه السلام بأمر إخلاص العبادة لله تعالى وحده، وفيه ردّ على من يزعم ألوهية عيسى عليه السلام وبنوته لله تعالى وهو منزه عنه.

وعلى الرغم من وضوح الصراط المستقيم في أمر عيسى عليه السلام بأنه عبد الله ورسوله، اختلفوا بنو إسرائيلَ في حقه عناداً وشركاً، قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)﴾، أي: اختلفت الفرق من النصارى واليهود فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة، ومنهم من افترى على مريم عليها السلام بهتاناً عظيماً، وفي هذا نفي لأقوالهم الباطلة وآرائهم الفاسدة، وتهديد ووعيد شديد لمن كذّب على الله وزعم أن له ولد.[2]

وقد استمرت سورة مريم في اثبات العقيدة السليمة بتنزيه الله عن الولد، وفي ردّ الزعم والمقولة الشنيعة في حق الله سبحانه وتعالى. ولماّ قررت هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام ونفي بنوته لله تعالى، عطف عليه حكايةً جنايةَ المشركين من العرب من دعوى البنوة له، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88)﴾، عطف على الآية التي جاءت قبلها: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81)﴾، حيث ردّ الله تعالى على المشركين في اتخاذهم الشركاء لله من الأوثان في هذه الآية، ثم تمت حكاية أقوالهم بأن لله ولد، إذ كان يقول المشركون إن الملائكة بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾[سورة النحل: 57]، وعاد الردّ على من أثبت له ولداً. والضمير في قوله "قالوا" عائد إلى المشركين من العرب، وذهب بعض العلماء إلى أن النصارى

---

[1] انظر: القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، محاسن التأويل، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1957، ج11 – 4137.

[2] انظر: ابن السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 2002، ص493.

واليهود داخلون في هذه الآية بإسنادهم لله ولداً، والأول أحسن؛ لأن الردّ على بني إسرائيل تقدم في أول السورة، والسياق هنا مناسب للمشركين أكثر.[1]

ثم رد تعالى علي مقالتهم الباطلة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89)﴾، الإدّ: "الأمر العظيم المنكَر المتعجَّب منه"،[2] أي: لقد جئتم بهذا القول شيئاً منكراً تنكره العقول ولا يليق بذات الله العلية. وفي الانتقال من الغيبة إلى الخطاب تهويل لقولهم، وإشعار بشدة السخط والغضب. ثم بين قوله تعالى شدة فظاعة قولهم، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90)﴾، أي: يهتزُّ كل واحد وترتجُّ وتغضب كل المخلوقات من قولهم خصوصاً الجمادات العظيمة كالسموات والأرض والجبال، وذلك لغيرتها على المقام الرباني الأحدي من نسبة الولد له تبارك وتعالى. وقال تعالى: ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91)﴾، أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد المخلوقات تنشق وتنفطر، ثم رد الله تعالى مرة أخرى على ادعائهم الشنيع: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92)﴾، أي: لا يصلح ولا يليق لجلال وجهه اتخاذ الولد لاستحالته عليه تعالى؛ لأن ذلك يدل على نقص واحتياج وهو الغني الحميد. ثم أقام تعالى الدليل على استغنائه عن ذلك تحقيقاً لوحدانيته وبياناً لرحمانيته، فقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93)﴾، أي: كل الموجودات مملوك له وهم يأوون إليه يوم القيامة مقرين بالعبودية له خاضعين ذليلين.[3]

وإذا أنعمنا النظر إلى سورة مريم نرى أنها جاءت بدايتها تحدثنا عن زكريا الوالد ويحيى الولد، وعن مريم الأم وعيسى الإبن عليهم السلام، وبعدها تحدثنا عن إبراهيم عليه السلام ومحاورته المؤثِّرة مع أبيه، وكان الحديث عن الأبوة والبنوة هو السمة العامة لسورة مريم، وهي التي تحدثنا في آخرها بما يهُزُّ القلوب والمشاعر وما تكاد السموات تتفطر له وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، وهو دعوى الكافرين والمشركين لله ولد، ولعل ذلك يُظهر السر الرائع في حديثها المستفيض بالرد على نسبة الولد إلى الله سبحانه.[4]

---

[1] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص567؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص169.

[2] السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق، ج7 – ص645-646.

[3] انظر: القاسمي، محاسن التأويل، ج11 – ص4165.

[4] عباس، فاضل حسن، قصص القرآن الكريم، دار النفائس، ط3، عمان الأردن، 2010، ص278.

ثانياً: في سورة الزخرف

لقد تناولت سورة الزخرف أيضاً تنزيهَ الله عن الولد وذلك من خلال الرد الشديد على من ينسب له تعالى ولداً في آيات كثيرة، وتتعرض الآيات الكريمة هنا لِما كان عليه أهل مكة من هذا الضلال في العقيدة والعبادة، قال تعالى في المشركين: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)﴾.

يخبر الله تعالى بهذه الآيات عن المشركين الذين ينسبون لله ولداً، وذلك قولهم: الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، وهذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)﴾، أي هم اعترفوا بأن الله تعالى خالق السموات والأرض ومبدعهما وفاطرهما، ومع ذلك أثبتوا لله تعالى ولداً، وكيف يستقيم لخالق كل شيء بنات فهنّ مخلوقات أيضاً بلا شكّ، وفي هذا تعجُّب من حالهم في تناقض آرائهم وأقوالهم. والجزء: بعض من كلٍّ وقطعة منه، وكأن الولد منفصل من أبيه، ولذلك يقال للولد: بضعة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني."[1] ثم ذيّل قوله تعالى بإشارة ظاهر كفرهم من نسبة الولد إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾.[2]

ثم تنكر الآيات الكريمة عليهم منطقهم الخاطئ غاية الإنكار وتتعجب من حالهم حيث لم يقنعوا بجعلهم لله من عباده جزءاً، حتى جعلوا ذلك الولد أخس الصنفين، فقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16)﴾، أي: هل اتخذ سبحانه وتعالى من خلقه شر الجزئين –في نظركم- وهو الأنثى، واختار لكم أفضلهما وهو الذكر، فكيف يصح هذا مع أنه تعالى هو الخالق؟ وهذا إبطال لهم جدلي بديهي، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[سورة النجم: 21-22].

وقدم ذكر كلمة "بنات" على "البنين"؛ لأنه أُنكر عليهم نِسْبَتُهنّ إلى الله، وليردّ على المشركين في تحقيرهم البنات. ثم يؤكد قوله تعالى جهلهم وغفلتهم عن المنطق السليم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)﴾، أي: وإذا بشر أحد المشركين بما جعل لله مشابهاً وهو الأنثى، صار وجهه كأنه أسود من الحزن، وأصبح ممتلئاً غيظاً وغماً من سوء ما بشر

---

[1] صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، (3714)، ج5 – ص21.

[2] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص176-177، (بتصرف).

به، فكيف تنسبون البنات إلى الله تعالى وأنتم تكرهونها؟ وفي ذلك استخفاف بجانب الألوهية. البشارة هنا استهزاء بهم؛ لأنها تستعمل لأمر مسرّ.[1]

لماّ بين قوله تعالى بهذه الآيات تعنيفهم لقولهم إن الملائكة بنات الله تعالى، وبين تعالى فساد مقالتهم هذه من جهة أخرى، وذلك دعواهم في الملائكة وهم عباد الله المقربين بأنهم إناث، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19)﴾، عطف على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، أي: حكموا بأن الملائكة إناث بغير دليل عندهم، ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، الاستفهام إنكاري لإبطال مقالهم، أي: ما حضروا خلق الملائكة حتى عرفوا أنهم إناث، كقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150)﴾[سورة الصّافات: 150]. وقال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، هذا تهديد ووعيد لتحقق العقاب على كذبهم يوم القيامة إذ هي شهادة زور، ويجازيهم الله على ذلك الكذب. وتبين بذلك أن كفار العرب قد جمعوا في كَفْرَةٍ ثلاث كَفَرَاتٍ: الأولى: أنهم جعلوا لله ولداً، الثانية: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين لحقارتها في نظرهم، الثالثة: أنهم حكموا على الملائكة الذين هم عباد الله المكرمون بالأنوثة لنسبتهم إلى الله بناتاً بلا دليل ولا برهان، وردّ الله تعالى علي أقوالهم الشنيعة هذه، ونزه ذاته عن الولد والشريك.[2]

وجاء الكلام في تنزيه الله عن الولد في هذه السورة حيث إن كفار قريش كانوا يجادلون مع النبي صلى الله عليه وسلم في حقه بسبب كفرهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59)﴾.

روي في سبب نزول آية: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكفار قريش: "إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير"، فقالوا "يا محمد ألست تزعم أن عيسى كان نبيًّا وعبداً من عباد الله صالحاً فإن كنت صادقاً فإن آلهتهم لَكَمَا تقولون"، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57)﴾.[3]

---

[1] الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص245-247؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص177-180، (بتصرف).

[2] الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص248؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص182-183، (بتصرف).

[3] أحمد بن حنبل، مسند، ج5 – ص85-86. نقله الألباني في السلسلة الصحيحة وحكم عنه بأنه : إسناده حسن رجاله ثقات، ج7 – ص632؛ الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي، أسباب نزول القرآن، دار الإصلاح، ط2،

ولماّ ضرب عيسى عليه السلام في القرآن وضرب المثل بالآلهة التي عبدت من دون الله، جادل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم وضربوا عيسى عليه السلام مثلاً لآلهتهم وشبهوه بها؛ لأنه معبود النصارى، وكانوا يضحكون ويصيحون فرحاً بذلك المثل المضروب وبسكوت النبي صلى الله عليه وسلم عنهم انتظاراً للوحي. ثم بين قوله تعالى كيفية جدالهم: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، الاستفهام هنا تقريري إذ هم يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم يفضل عيسى عليه السلام على آلهتهم، ويكون المعنى: فقد لزمك أنك جعلت من كنتَ تفضل أهلاً للنار، ثم بين تعالى نيتهم القبيحة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، أي: لا تهتمّ بما قالوه، فإنهم ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والخصومة بالباطل، وليس من أجل الوصول إلى الحق، وهم قوم شديدو الخصومة كثيرو اللَدَدِ.[1]

ثم بين قوله تعالى حقيقة عيسى عليه السلام تحقيقاً لبطلان جدالهم، لأن تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم لا يدل على الفرق بينه وبين آلهتهم في هذا الموضع، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59)﴾، أي ما عيسى عليه السلام إلا عبد من عبادنا أكرمناه وأنعمنا عليه بالنبوة والرسالة، وليس ابنَ الله كما زعمت النصارى، وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل. وحصر عيسى عليه السلام في العبودية على طريقة قلب القصر لتأكيد الرد على من يدعي ألوهيته؛ لأن الألوهية تنافي العبودية. وهذا كلام حكيم مشتمل على الردّ على النصارى والمشركين على فساد رأيهم في إلهية غير الله سبحانه.[2]

لماّ قدم قوله تعالى أنه أُنعم على عيسى عليه السلام بالرسالة وجعله مثلاً لبني إسرائيل، أشار إلى حقيقة ما جاء به، واختلاف قومه من قبله، واختلافهم من بعده كذلك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ

الدمام، 1992، ص252؛ السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، أسباب النزول المسمى لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت، 2002، ص228.

[1] انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج7 ص323-324؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص239؛ طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، 1992، ج13 – ص92.

[2] انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج7 – ص41؛ الآلوسي، روح المعاني، ج25 – ص93؛ ابن سعدي، ، تيسير الكريم الرحمن، ص768.

يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾، أي: ولما جاء عيسى عليه السلام لبني إسرائيل بالمعجزات الدالة على صدقه، قال لهم: قد جئتكم بالشرائع الصالحة والكلمات والتوجيهات إلى الصراط المستقيم من توحيد الله وأصول الدين العامة، ولأوضح لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين، فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوني في أمري به من توحيد الله وشرائع الدين.[1] ثم بين قوله تعالى ما أمرهم بالطاعة فيه وهو الإقرار بتوحيد الله في الربوبية والعبودية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64)﴾، أي: الله ربيّ وربّكم لا غيره، فأخلصوا له العبادة وحده. وفي هذا إعلان بالوحدانية وإن كان بنو إسرائيل موحدين؛ ولكن ظهرت بدعة في بعض فرقهم وقالوا: عزير ابن الله. وكذلك تقديم نفسه على قومه في قوله: "ربي وربكم" يفيد ردّ الغلو في تقديس عيسى عليه السلام بقصد سد الذرائع؛ لأن الله عالم أن قوم عيسى عليه السلام سيغلون في حقه ويدعون بنوته لله تعالى. وبذلك تقرر الآية تنزيه الله عن الولد، وتردّ على من يزعم أن عيسى عليه السلام ولد لله تبارك وتعالى.[2]

ثم أشار قوله تعالى إلى الفِرَق المتحزبة المختلفة في حقيقة عيسى عليه السلام مع وضوح الصراط المستقيم كفراً وعناداً، قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾، واختلفت الفرق من اليهود والنصارى في شأنه وتفرقوا ثلاث فرق: نسطورية، ويعقوبية، ومَلْكَانِيَّة. وقالت الياقوبية: هو الله بطريق الحلول، وقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت الملكانية هو ثالث ثلاثة مجموعها هو الإله. وذُيل قوله تعالى بالتهديد والوعيد للذين ظلموا بشركهم مع الله غيره في الألوهية.[3]

ولما ذكر قوله تعالى في بداية السورة تبكيت المشركين والتعجب منهم في ادعائهم لله ولداً من الملائكة وتهديدهم بقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، عاد الردّ في آخر السورة على إفكهم في أن يكون لله ولداً بالحجة الواضحة والبرهان الصحيح، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81)﴾. واختلف المفسرون في معنى هذه الآية على عددة وجوه:

قال بعضهم: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله وحده وأول المؤمنين بتكذيبكم، قاله مجاهد.

---

[1] انظر: نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج7 – ص130.

[2] ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص768-769؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص248، (بتصرف).

[3] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5 – ص62.

وقال الآخرون أن حرف "إنْ" للنفي دون الشرط، ويكون المعنى: ما كان للرحمن ولد، وأنا أول العابدين لله والمقرين بذلك، وهذا عن ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم.

وقال الآخرون: إن كان للرحمن ولد فأنا أول الآنفين أن يكون له ولد، بتأويل كلمة العابدين من عبِد يعبَد بمعنى أنف يأنف، قاله الكسائي.[1]

وذهب كثير من المفسرين إلى إجراء معنى هذه الآية على ظاهره دون التأويل-وهذا الراجح-، فيكون المعنى بذلك: قل يا محمد: إن كان للرحمن ولد كما تقولون فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه، ولكن هذا مستحيل في حق الله تعالى وممتنع أن يكون له ولد. وهذه الجملة شرطية مركبة من الشرط والجزاء، ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد لله وعبادته عليه السلام له، وهذا كلام وارد علي سبيل الفرض والتمثيل لقصد المبالغة في نفي الولد، كما قال تعالى:﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[سورة الزمر: 4]، أو كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[سورة الأنبياء: 22]، وذلك أبلغ وجوه النفي وأقواها.[2] ثم نزه الله تعالى ذاته عن اتخاذ الولد، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)﴾، تنزه وتقدس الله العظيم الجليل رب السموات والأرض والعرش عما يفترون عليه تعالى ما لا يليق بجنابه من نسبة الولد له وغيره. وصف ربوبيته جل وعلا بأقوى الموجودات الثلاثة هذه لإنتفاء أن يكون له ولد؛ لأنّ خالق هذه الموجودات لا يسبقه عدم ولا يلحقه فناء، ولا فائدة أن يكون له ولد بعدم احتياجه.[3]

التناسق بين السورتين في موضوع تنزيه الله تعالى عن الولد:

كما مرَّ من قبل أن موضوع تنزيه الله تعالى عن الولد موضوع أساسي لكتاب الله تعالى، ويلاحظ أن كثيراً من السور والآيات الكريمة تتناول هذا الموضوع ليهدي الناس إلى العقيدة السليمة، وتناولت هذا الموضوع الأساسي سورتا مريم والزخرف المكيتان متناسقاً متناسباً والذي يُظهر لنا علاقتهما القوية فيما بينهما، ويمكننا أن نشير إلى تناسقهما في هذا الموضوع بما يلي:

---

[1] الطبري، جامع البيان، ج21 – ص648-650؛ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، النكت والعيون، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5 – ص240-241، (بتصرف).

[2] الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص268؛ الرازي، مفاتيح الغيب، ج27 – ص651-656؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5 – ص97، (بتصرف).

[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص266، (بتصرف).

1- لماّ ذكر قوله تعالى في سورة مريم قصة مريم وولادتها لعيسى عليهما السلام من غير أب، بيّن حقيقة عيسى عليه السلام ونفى أن يكون له ولد على لسان عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾، وردّ الفرق المتحزبة من النصارى واليهود في حقه بقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)﴾، وورد ذكر عيسى عليه السلام في سورة الزخرف أيضاً منزهاً لله عن أن يكون له ولد وراداً على من يزعم بنوته لله تعالى بآيتين متشابهتين كما هو في سورة مريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾.

2- لما ردّ قوله تعالى في سورة مريم على مشركي العرب الذين ينسبون لله ولداً ويقولون: الملائكة بنات الله، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88)﴾، وذكر قوله تعالى الردّ على المشركين في سورة الزخرف أيضاً في قولهم الشنيع لله تعالى بأن يكون له ولد، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)﴾.

3- إذا أنعمنا النظر في الآيات التي تنزه الله تعالى عن الولد في سورتي مريم والزخرف، نجد أنه ورد في جميعها اسم الرحمن حيث قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88)...أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93)﴾، وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19)... قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81)﴾، وبين ابن عاشور حكمة تكرار اسم الرحمن في هذه الآيات وقال: "وتكرير اسم الرّحمن في هذه الآية أربع مرات إيماء إلى أن وصف الرحمن الثابت لله، والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته لله وإن أنكروا

لفظه، ينافي ادعاء الولد له؛ لأنّ الرحمن وصف يدلّ على عموم الرّحمة وتكثرها. ومعنى ذلك: أنّها شاملة لكل موجود، فذلك يقتضي أن كل موجود مفتقر إلى رحمة الله تعالى، ولا يتقوم ذلك إلا بتحقق العبودية فيه؛ لأنه لو كان بعض الموجودات ابناً لله تعالى لاستغنى عن رحمته لأنه يكون بالبنوة مساوياً له في الإلهية المقتضية الغنى المطلقَ، ولأن اتخاذ الابن يتطلّبُ به متخذُه برّ الابن به ورحمته له، وذلك ينافي كون الله مفيض كلّ رحمة."[1]

4- لماّ ذكر قوله تعالى في سورة مريم قصة ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، إذ تكلّم عيسى عليه السلام وهو في المهد صبي معلناً عبوديته لله تعالى ورادّاً على من يزعم بنوته لله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30)﴾، وأكد قوله تعالى في سورة الزخرف عبودية عيسى عليه السلام لله، وردّ على من يدعي بنوته لله، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59)﴾.

المطلب الثالث: إثبات البعث يوم القيامة

إن الإيمان باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت ركن من أركان الإيمان، إذ الحال أن الله تعالى خلق الإنس والجن ليؤمنوا به ويعبدوه وحده، وأرسل لهم الرسل ليبين لهم الحق من الباطل وليهديهم إلى صراط الله العزيز الحميد، ومع ذلك الإرشاد منهم من آمن واهتدى، ومنهم من كفر وغوى، ومن حكمة الله تعالى أن جعل هذه الدنيا دار امتحانٍ وابتلاءٍ، وجعل الآخرة دار الجزاء؛ لأن كثيراً من الناس الذين يكفرون بالله ويرتكبون الإثم يموتون دون أن يروا جزاء شقاوتهم، وكثير من السعداء يغادرون أيضاً الدنيا وهم لا يجزون بمكافئة أعمالهم الصالحة، ولذلك سيبعث الله كل نفسٍ لتُجْزي ما كسبت، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾[سورة آل عمران: 185]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[سورة ص: 28].

وإثبات البعث في اليوم الآخر موضوع أساسي لكتاب الله تعالى، وإن المتأمل في القرآن الكريم يرى اهتمامه بإثباته بالادلة والبراهين في معظم صحفاته، وكذلك يجد أن الله تعالى يذكر في كثير من المواقع الإيمان به والإيمان باليوم الآخر مُتلازمين، ومن أمثلة هذه الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

---

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص173.

وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾[سورة البقرة: 62]، وقوله عز وجل: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾[سورة آل عمران: 114].

لقد أنكر الكافرون البعث بعد موتهم وزعموا أن لا حياة لهم إلا حياتهم الدنيا، وردّ القرآن الكريم على ادعائهم الباطل هذا.

وقد تناولت سورتا مريم والزخرف الإيمانَ باليوم الآخر وإثباتَ البعث بعد انتهاء الحياة الدنيا أيضاً في آيات كثيرة، ومن هذه الآيات:

أولاً: في سورة مريم

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الكافرين يوم القيامة في سورة مريم: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38)﴾، وهاتان الكلمتان صيغتهما التعجب، ولكن لا يوصف الله تعالى بالتعجب، وإنما يكون المعنى أن أسماعهم وأبصارهم جديرة يوم يأتوننا للحساب والجزاء بأن يتعجب منهما بعد ما صموا آذانهم وعموا أبصارهم في الدنيا، ذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[سورة السجدة: 12].[1]

ثم أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يخوف المشركين والكافرين بأهوال يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39)﴾، الحسرة: الغمُّ على ما فاته والندم عليه،[2] والمراد بيوم الحسرة يوم البعث والحساب، وإضافة اليوم إلى الحسرة لِكثرة حسرات المجرمين على ما فرطوا فيه من أسباب النجاة، {إذ قضي الأمر} أي: حين فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة وأهل النار، وحكم لأهل الجنة بمقام الابد فيها ولأهل النار بالخلود فيها، وهم كانوا غافلين عما يفعل بهم في ذلك اليوم وكافرين بيوم القيامة.[3] ثم ذُيّل قوله تعالى بتهديد المشركين الذين ينكرون البعث والجزاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)﴾، أي: أن الله سبحانه وتعالى يُميت كل الخلق يوم القيامة ويبقى هو وحده، وهو الوارث لجميع خلقه

---

[1] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص19؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4 – ص593.

[2] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص235.

[3] انظر: الطبري، جامع البيان، ج18 – ص201؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص107-109.

والباقي بعدهم، ثم يبعثهم الله ويرَدّون إليه ليجازي كلاً بعمله. وتأكيد جملة " إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ" بحرف التأكيد ومجيء ضمير الفصل لدفع شبهة المشركين في البعث والجزاء.[1]

ثم ساقت السورة الكريمة موقف المشركين من عقيدة البعث، وأخبرت عن الإنسان الذي يستبعد البعث والنشور، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66)﴾، أي: يقول الإنسان الجاهل المنكر البعث هل إذا مت وأصبحت تراباً سوف أخرج حياً من القبر بعد الموت، وأبعث للحساب؟ الإنسان هنا اسم للجنس ويراد به كل من يقول هذا القول ويعتقده، والاستفهام في قوله " أَإِذَا " لإنكار وقوع البعث.[2] ثم ردّ قوله تعالى عليهم بما يبطل قولهم بالاحتجاج النظري، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)﴾، والمعنى: كيف يقول الإنسان المنكر البعث هذا القول وينسى أصله وطبيعته؟ وكيف لا يتذكر ولا يتفكر أننا أوجدناه من العدم الصرف ولم يك شيئاً موجوداً، وبذلك يعلم العاقل أن من أنشأ من غير شيء لا يعجز عن إعادته بعد فنائه وهو أقدر عليه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...﴾[سورة الروم: 27]، على أن الله تعالى سواء عليه الأمران، لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل.[3] الاستفهام في "أَوَلَا" للإنكار التوبيخي، والمراد من "الذكر" هنا التفكر والتدبر، وتكرار كلمة "الإنسان" إظهاراً في موضع الإضمار لزيادة التقرير ولإشعارٍ بأن الإنسانية من دواعي التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المُنْجِية بالقلع عن القول المذكور.[4] وجاء في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: "كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد."[5]

لمآ أقام قوله تعالى هذه الحجة الدامغة المتعلقة لحقيقة البعث على الكافرين، أكدها بالقسم باسمه تعالى مضافاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن رسوله، فقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)﴾، أي: فوربك يا محمد

---

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص110.

[2] انظر: ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص498.

[3] انظر: الطبري، جامع البيان، ج18 – ص227؛ الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص43.

[4] أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5 – ص274.

[5] صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾، (4974)، ج6 – ص180.

لنجمعن هؤلاء المنكرين البعث يوم القيامة مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم، ثم لنأتين بهم أجمعين قاعدين على رُكَبِهم حول جهنم في هوان وذلة.[1]

وعطف "الشياطين" على ضمير المشركين لقصد تحقيرهم؛ لأنهم أحقر جنس، وللإشارة إلى أن الشياطين هم سبب ضلالهم، كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)... حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)﴾.[2]

ثانياً: في سورة الزخرف

قد تناولت سورة الزخرف أيضاً إثبات البعث بعد الموت يوم القيامة في عدة آيات كشأن سورة مريم، ومن هذه الآيات الكريمة:

لما ذكر قوله تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السموات والارض هو الله جل وعلا وحده، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)﴾، بين قوله تعالى لهم صفاته الجليلة الدالة على كمال قدرته؛ لأنهم مع إقرارهم بذلك أشركووا به غيره، وأنكروا البعث من جهلهم، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11)﴾، أي: هو الذي جعل الأرض ممهدة كالفراش، وأمكن لكم الإقامة فيها والاستقرار عليها، وأوجد لكم فيها طرقاً متعددة بين الجبال والأودية لكي تسلكوها وتهتدوا إلى مقاصدكم ومنافعكم، وهو الله الذي أنزل من السماء مطراً بقدر الحاجة لئلا يحدث الطوفان والغرق أو القحط فأحيى الله بهذا الماء البلاد الميتة المُقْفِرة بالنبات، وكذلك تبعثون -أيها الناس- من قبوركم أحياءً يوم القيامة.[3] وفي التشبيه في هذه الآية حجة عليهم في إنكار البعث، أي: مثل هذا الإخراج العظيم لِمَا تشاهدونه من النبات، تبعثون من الأرض بعد موتكم،

---

[1] انظر: أبو حيان، البحر المحيط ج6 – ص195؛ الشوكاني، ج3 – ص386.

[2] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 16 – ص147؛ الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، 1983، ج4 – ص345.

[3] سيد طنطاوي، التفسير الوسيط ج13 – ص64؛ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج13 – ص129-130، (بتصرف).

ووجه الشبه هو إحداث الحي بعد موته.[1] ويبين أبو السعود الآية بتعبيرٍ دقيقٍ حيث قال: "وفي التعبيرِ عن إخراجِ النباتِ بالإنشارِ الذي هُو إحياءُ المَوتى، وعن إحيائِهم بالإخراجِ تفخيمٌ لشأنِ الإنباتِ وتهوينٌ لأمرِ البعثِ لتقويمِ سننِ الاستدلالِ وتوضيحِ منهاجِ القياسِ."[2]

ويبين قوله تعالى حال الذين يعرضون عن القرآن وعبادة الرحمن يوم القيامة بأنه لن ينفعهم ندمهم وتحسرهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)﴾، أي: ومن يتغافل ويعرض عن كتاب الله وما فيه من الأوامر والنواهي، يهيئ الله له شيطاناً يوسوس له ويغويه ليصبح رفيقاً له في كل أموره، وإن الشياطين الذين قُيضت لهم ليمنعونهم عن الصراط المستقيم بالوسواس، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. ثم يوضح قوله تعالى ما يكون بين هذا الإنسان المعرض عن ذكر الله ومع قرينه من الشيطان عندما يبعثون يوم القيامة، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)﴾، أي: لقد استمرّ حال المعرض في الدنيا هكذا ومات على ذلك، فإذا وافى الله يوم القيامة الذي يحاسب الله تعالى الخلق فيه، يندم ويتحسر الإنسان الكافر من الشيطان قريناً، ويتمنى أن يكون بينه وبين الشيطان من البعد ما بين المشرق والمغرب ويذمه.[3]

لما ذكر تعالى بطلان قول مشركي العرب في حق الله تعالى بأن الملائكة بناتٌ له، وردّ عليهم بالبرهان القاطع ونزه نفسه عن أن يكون له ولد، ثم سلى النبي صلى الله عليه وسلم بسبب موقف الكفار المعاندين له، وهددهم بعذاب شديد يوم القيامة، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)﴾، أي: فاترك أيها النبي هؤلاء المفترين على الله بأن له ولد، يخوضون في باطلهم وضلالهم ويهزؤون بالإسلام حتى يلقوا يوم القيامة الذي يوعدون به.[4] وهذه

---

[1] انظر: النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، تفسير النسفي- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكلم الطيب، ط1، بيروت، 1998، ج3 – ص266؛ البقاعي، نظم الدرر، ج7 – ص10؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – 171.

[2] أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8 – ص41.

[3] سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ج13 - 81؛ وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج13 – ص165-166، (بتصرف).

[4] انظر: المراغي، تفسير المراغي، ج25 – ص115.

الآية اعتراض بين الآية التي قبلها وبعدها، وتَيْئيس من نفع الحجة فيهم، والأولى تركهم في ضلالهم حتى يعاينوا يومهم الذي يوعدون. واليوم هنا يوم القيامة عند الجمهور، وعن عكرمة وغيره أنه يوم بدر؛ لأن أكابر كفار قريش الذين يتَصَدَّوْن لمحاججة النبي صلى الله عليه وسلم قتلوا يوم بدرٍ.[1]

التناسق بين السورتين في إثبات البعث يوم القيامة:

تناولت سورتا مريم والزخرف المكيتان موضوع البعث بشكل متناسق متناسب، ويمكن الإشارة إلى تناسقهما في هذا الموضوع بما يلي:

1- لماّ ذكر قوله تعالى في سورة مريم قول منكري البعث ومستبعديه، وردّ عليهم بما يبطل قولهم بالاحتجاج النظري، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)﴾، جاء الردّ على المشركين في إنكارهم البعث بالاستدلال بالتشبيه، في قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11)﴾.

2- لماّ أقام قوله تعالى في سورة مريم الدليل على البعث يوم القيامة، أكد قوله تعالى حشر الكافرين وحشر الشياطين معهم الذين يسببون ضلالهم ويغوونهم، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)﴾، وأشارت سورة الزخرف أيضاً إلى حشرهم وحشر شياطينهم معهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)﴾.[2]

المطلب الرابع: إثبات نبوة رسول الله صلى الله وسلم

إن الرسالة وظيفة عظيمة بعث الله الرسل والأنبياء بها ليهدوا الناس إلى توحيد الله وعبادته وحده، وليرشدوهم إلى طريق النجاة في الآخرة، واصطفى الله الرسل من خيرة خلقه، وما من أمة إلا بعث الله فيها نذيراً لتقوم الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

---

[1] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5 – ص66؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص226-227، (بتصرف).

[2] انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ج4 – ص345.

وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...﴾[سورة النحل: 36]، وبُدئت هذه الرسالة بآدم عليه السلام وانتهت بخاتم الأنبياء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله إليه القرآن الكريم هداية للمتقين.

القرآن الكريم معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الكبرى الذي أتى به الناس وهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ...(23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ...﴾[سورة البقرة: 24]، وهو بخصوخيته هذه أكر دليل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والقرآن الكريم يعتني بإثبات نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً، وهو موضوع رئيس لسور القرآن الكريم، وتناولت سورتا مريم والزخرف هذا الموضوع أيضاً في آيات كثيرة، ومن هذه الآيات:

أولاً: في سورة مريم

أفتتحت سورة مريم بقوله تعالى: ﴿كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)﴾، كلمة "ذكر" خبر لمبتدإ محذوف، والتقدير: هذا المتلو من القرآن ذِكر رحمة ربك الذي يقص عليك عبده زكريا. وقرئ ب"ذَكَرَ وذَكَّرَ"، وبهكذا يكون معناه أن القرآن ذَكَّرَ الناس برحمة الله عبده لما نسوه من رحمة الله، فيكون فيه دلالة على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر لهم قصة زكريا عليه السلام.[1]

وجاء هذا التذكير أيضاً في هذه السورة عدة مرات عندما أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بذكر قصص بعض الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ...(41) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى...(51) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ...(54)...﴾. الخطاب في هذه الآيات للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد من الكتاب القرآن الكريم، أي: اذكر يا محمد في كتاب الله الذي أنزله عليك بالحق. واختصت سورة مريم بزيادة كلمة "في الكتاب" بعد أمر "اذكر"، وفي ذلك إشارة إلى أن الذكر كائن

[1] انظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج7 – ص219؛ أبو حيان، البحر المحيط ج6 – ص163.

بآيات القرآن وليس مجرَّدَ ذكرٍ من قول النبي صلى الله عليه وسلم كقوله[1]: "لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي."[2]

لما ذكر قوله تعالى في هذه السورة التوحيد والنبوة والحشر والرد على فرق الضالين وقصّ بعض الأنبياء، جاء في ختامه التنويه بالقرآن لبيان ما في تنزيله من الحكم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97)﴾، أي: فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بإنزالنا إياه بلغتك العربية الفصيحة وبسهولة قراءته وفهم معانيه، لتبشر به المتقين وتنذر به قومك الألداء. واللُّدُّ جمع ألد وهو شديد الخصومة بالباطل[3]، وفي وصف القوم بهذه الصفة إشعار بأن كفرهم عن عناد وهم يعلمون أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هو الحق، كما قال تعالى: ﴿...فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[سورة الأنعام: 33].[4]

ثانياً: في سورة الزخرف

لقد تعرضت سورة الزخرف أيضاً لإثبات نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة، ومن هذه الآيات:

افتتحت سورة الزخرف بالحديث عن مصدر القرآن الذي أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم بلسان قومه وهم عجزوا عن الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)﴾، يقسم الله تعالى بالقرآن الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وجواب القسم قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)﴾، أي: إنا أنزلنا هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بلسان العرب لتعقلوا أيها المنذرون به ما فيه من عبر ومواعظ ولتتدبروا معانيه ولتفهموا أوامره ونواهيه. ووَصْفُ الكتاب بالعربية للتنويه بالقرآن ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة، ولتوبيخ المعاندين من العرب لعدم تأثرهم من معانيه كأنهم يسمع كلاماً غير لغتهم.[5]

---

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص79.

[2] صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾، (3207)، ج4 – ص147؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، (151)، ج1 – ص133.

[3] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص739.

[4] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج22 – ص5؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص176-177.

[5] المراغي، تفسير المراغي، ج25 – ص67؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص161.

وتحدث قوله تعالى في هذه السورة عن إبراهيم عليه السلام الذي يزعم أهل مكة أنهم من نسله وملته، وكذب دعواهم الباطلة وبين أنه على التوحيد وما كان من المشركين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)﴾، وأفاد في آخر الآية أن كلمة التوحيد –وهي لا إله إلا الله- التي جاء بها إبراهيم عليه السلام ما زالت من بعده في ذريته، ولكن ذلك لايعمّهم كلهم؛ لأن كلمة التوحيد انقطعت من العرب بعد شروعهم في عبادة الأصنام، فأصبحوا مشركين بالله تعالى.[1]

وأكدت هذا المعنى الآية بعدها ونَدَّدت بحال اغترارهم بالنعمة في كفرهم، قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29)﴾، أي: بل متعت يا محمد هؤلاء المشركين من قومك وآباءَهم من قبلهم بمتاع الدنيا على كفرهم، ولم أعاجلهم بالعقوبة جزاء على تفريطهم حتى جاءهم الحق وهو القرآن العظيم ورسول مبين وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي يوضح لهم الطريق المستقيم.[2] ثم وبّخ تعالى على إعراضهم في القرآن من الحق وإنكارهم له، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30)﴾، أي: حينما جاء القرآن والرسول المبين لينبههم على غفلتهم، ازدادوا عتوّاً وضلالاً ووصفوا القرآن بالسحر وكفروا به واستحقروا الرسول صلى الله عليه وسلم جاحدين معاندين.[3]

وفي هذا تعجّب من حال تغافلهم؛ إذ قد كان لهم بعض العذر قبل أن جاءهم الرسول والكتاب المبين، ولكنْ لما جاءهم الحق ليوقظهم من غفلتهم وليتذكروا كلمة أبيهم إبراهيم، سموا القرآن بالسحر والنبي صلى الله عليه وسلم بالساحر. و"لما" في قوله ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ ...﴾ توقيتية فهي في قوة "حتى" الغائية، وتفيد معنى أنهم كانوا قبل مجيء الحق مشركين عن غفلة، فبعد مجيء الحق صاروا مشركين عن عناد ومكابرة.[4]

ولما ذكر قوله تعالى طعنهم بالقرآن بقولهم إنه السحر، أتبعه بالإخبار عن طعنهم فيمن جاء به واعتراضهم على الله في اختياره لمحمد صلى الله عليه وسلم للرسالة،[5] قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ

---

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص196؛ نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج7 – ص115.

[2] انظر: الطبري، جامع البيان، ج21 – ص591.

[3] انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج5 – ص90؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8 – ص45.

[4] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص198-199.

[5] انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج7 – ص24؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5 – ص3186.

هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)﴾، أي: وقال كفار قريش حسداً: هلا أنزل هذا القرآن على أحد الرجلين العظيمين ذوي الجاه والمال من مكة أو الطائف؟ واختلف المفسرون في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم: وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما الوليد بن المغيرة المخزومي من مكة، وحبيب بن عمرو الثقفي من الطائف، وعن مُجاهد أنهما عتبة بن رَبيعة من مكة، وكنانة بن عبد يَالِيل من الطائف، وعن قتادة أنهم عنوا الوليد بن المغيرة من مكة وَعُروة بن مسعود الثقفي من الطائف.[1] وبذلك هم خلطوا القيم والموازين في منصب الرسالة؛ لأنهم قالوا: لا يليق بالرسالة إلا رجل شريف-وهذا صواب-، ولكنهم قرنوا ذلك بأن يكون هذا الرجل الشريف ذا جاه ومال في مكة أو الطائف، وفي اقتصار القرآن على ذكر الوصفين دون الإسمين تنبيه على ما يكونون به أهلاً للرسالة وتحميق لرأيهم.[2]

ثم ردّ تعالى قولهم مستنكراً على اعتراضهم على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)﴾، قال مقاتل: "أي: أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاءوا؟ ولكنها بيدي أنا، أختار من أشاء من عبادي للرسالة."[3] والاستفهام للإنكار وللتعجب من اعتراضهم وتحكمهم، بأن يرون أنفسهم المدبرين لأمر النبوة، وتقديم ضمير "هم" يفيد معنى الاختصاص للإنكار على قولهم، ويثبت تخطئتهم في حكمهم. ثم يضرب قوله تعالى لهم مثلاً ويُعلم أنه هو الله تعالى يجعل التفاوت في مناصب الدنيا والأرزاق والحظوظ والتفاوت بين العباد في القوة والضعف والعلم والجهل، ويسخر بعضهم لبعض في أشغال حياة الدنيا، ويرفع بذلك بعضهم فوق بعض درجاتٍ، وإذا كان الحال هكذا في تدبير معيشتهم الدنيوية، كيف يتحكمون في أمر النبوة وهي رحمة الله العظمى لعباده. وذيل قوله تعالى بالإخبار أن الله تعالى إذا خص بعض عباده بنوع فضله ورحمته في الدين فهذه الرحمة خير من الأموال الزائلة التي يجمعونها في الدنيا؛

---

[1] انظر: الطبري، جامع البيان، ج21 – ص592-593؛ ابن أبي حاتم، الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن الرازي، تفسير القرآن العظيم، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، الرياض، 1997، ج10 – ص3282؛ الماوردي، النكت والعيون، ج5 – ص223.

[2] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج27 – ص635؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص200.

[3] مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، تفسير مقاتل بن سليمان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2003، ج3 – ص189.

لأن رحمة الله وفضله باق دائم، وهذا التذييل ردّ ثانٍ على المشركين لاعتبارهم المال والجاه عماد الاصطفاء للرسالة.[1]

ثم جاء الحديث في هذه السورة عن أمرٍ للنبي صلى الله عليه وسلم بشدة التمسك بالقرآن وبالثبات على دينه وكتابه تعالى، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)﴾، أي: فتمسك أيها الرسول بهذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك، وإنك لعلى صراط مستقيم ومنهاج سديد. التمسك: شدة الإمساك، والأمر به هنا لطلب الثبات على التمسك بما أوحي إليه، كما دلّ عليه قوله تعالى﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وفي هذا تثبيت لنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وثناء عليه. ثم يؤيد قوله تعالى نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ويُثْني عليه بما أوحي إليه وهو القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44)﴾، أي: إن هذا القرآن شرف عظيم لك ولقومك من قريش، وسوف تسألون عنه في معاملتكم معه واستجابتكم له. والمقصود بالقوم قريش، ويجوز أن يكون جميع العرب؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وجاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من بينهم، وشَرُفوا بذلك.[2]

التناسق بين السورتين في إثبات نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أولاً: إذا استقرأ أي واحدٍ سورتي مريم والزخرف، يرى أنه استعملت صيغة الأمر مع الرسول صلى الله عليه وسلم في آيات كلتا السورتين كثيراً -كما أشار الباحث إلى بعض هذه الآيات في هذا المطلب-، وهذه المزية تدل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: معلوم أن من أوجه الدلالة على النبوة الإعجاز بالإخبار عن الغيب، ومن هذه الأخبار قصص الأنبياء والقرون السابقة في القرآن الكريم. وإن المتأمل لسورتي مريم والزخرف يرى أن قصص الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام – كما سيشار إلى تناسق هذه القصص في المبحث الثالث من هذا الفصل- وردت في كلتا السورتين ذاكرة المحاور نفسها، وكذلك في ورود هذه القصص في سورة مريم وسورة الزخرف إشارة إلى تناسقهما في الإخبار عن الغيب، وذلك من الأدلة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص252؛ الرازي، مفاتيح الغيب، ج27 – ص635-638؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص201-202.

[2] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص221.

المبحث الثاني: التناسق الموضوعي الفرعي بين سورتي مريم والزخرف

سبق الحديث عن التناسق الموضوعي الأساسي في سورتي مريم والزخرف، وفي هذا المبحث سيتناول الباحث موضوعات فرعية تطرقت إليها السورتان على وجه الإجمال، وهي: وجوب الإيمان بالملائكة، وعداوة الشيطان لبني آدم، والرد على من يزعم الشفاعة للكافرين يوم القيامة، والجنة ونعيمها، وجهنم وعذابها، ويريد الباحث أن يشير هذه الموضوعات وتناسقها في كلتا السورتين في هذا المبحث.

المطلب الأول: وجوب الإيمان بالملائكة

أولاً: في سورة مريم

فبعد أن ذكر الله تعالى قصة زكريا عليه السلام في سورة مريم و وَهْبِه الله إياه الولد التقي الزكي على كِبْر سنه وعُقْم زوجته، أردفه بذكر قصة مريم وولاتها عيسى عليهما السلام من غير أب، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)﴾، أي: اذكر يا محمد عليه الصلاة والسلام للناس في هذا القرآن قصة مريم بنت عمران من سلالة دوود عليه السلام، حين ابتعدت عن أهلها في مكان شرقي البيت المقدس للعبادة، واستترت منهم ومن الناس بحاجز لئلا يروها حال العبادة، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام فتشبه لها في صورة إنسان كامل. وذهب المفسرون في مراد "الروح" هنا إلى أنه جبريل عليه السلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ...﴾[سورة النحل: 102]، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[سورة الشعراء: 193-194]، وسمي جبريل عليه السلام ب"الروح"؛ لأن الدين يحيى به وبوحيه، وأنه روحاني لا يشوبه شيء غير الروح.[1]

ثم استعاذت مريم عليها السلام من البشر السوي إلى الرحمن خوفاً من سوء قصده بها، فقالت: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18)﴾، وقال الزمخشري في معنى هذه الآية: " أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به، فإني عائذة به منك، كقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ الله

---

[1] انظر: الطبري، جامع البيان، ج18 – ص163؛ الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص11؛ الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص521-522.

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة هود : 86]."[1] فيجيبها جبريل عليه السلام مزيلاً خوفها بهذا القول: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19)﴾، أي: يا مريم إنما أنا رسول ربك الذي استعذت به، فلا تخافي، أرسلني الله تعالى إليك لأهب لك بإذنه تعالى ولداً طاهراً من المعاصي. والقصر في قوله ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ قصر إضافي، ويفيد معنى "لستُ بشراً"، جواباً لقول مريم عليها السلام ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، حيث اعتقدت أنه بشرٌ، ونسبة الهبة لنفسه مجاز عقلي ليكون جبريل عليه السلام سبباً للهبة بالنفخ في جيبها.[2] وتبين بذلك أن جبريل عليه السلام رسول من الله تعالى إلى مريم البتول عليها السلام لهبة الولد بإذن الله تعالى.

وجاء الكلام في هذه السورة مبيّناً أن نزول جبريل عليه السلام بالوحي إنّما كان بأمر الله وتوظيفه، فقال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)﴾، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية أن جبريل عليه السلام أبطأ أياماً عن النزول إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأراد النبي من جبريل أن يزوره أكثر، فقال لجبريل: "ألا تزورُنا أكثر مما تزورُنا"، فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.[3] أي: قل يا جبريل لمحمد عليه الصلاة والسلام: ما نتنزّل بالوحي إلا بأمر ربك ومشيئته، وليس لنا اختيار في النزول، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[سورة الأنبياء: 27]. ومعنى التنزل هنا نزول الملائكة وقتاً بعد وقت، أو النزول على الإطلاق. وقوله تعالى ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ يعني عموم الجهات من المكان أو الزمان، والمقصود استيعاب جميع حالاتهم وتصرفاتهم، والله مالكهم ومدبرهم في كل أمورهم، وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تتمة قول جبريل مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: ما تركك ربك يا محمد ولا نسيك، وإن تأخر عنك الوحي فاعلم أن نزولنا بأمر الله لِمَا هو على وفق علمه وحكمته في ذلك.[4]

ولماّ ذكر قوله تعالى الدلائل على إثبات البعث في هذه السورة، أتبع ذلك ذكر الشخص الذي يزعم أنه يكون من أهل الجنة ومن الأعزاء بالمال والولد إن كان هناك بعثٌ، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ

---

[1] الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص11.

[2] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص523؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص81.

[3] صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (3218)، ج4 – ص112.

[4] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص30؛ الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص556؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص140-141.

الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79)﴾، أي: ألا أخبرك بهذا الكافر الذي كذب على الله ويقول: لأعطينَّ في الآخرة أموالا وأولادًا، هل اطلع على الغيب فيدعي هذا، أم له عهد عند الله بذلك؟ ليس الأمر كما يزعم، سنكتب ما يقول، ونزيده عذاباً فوق العذاب في الآخرة. وذهب بعض المفسيرين إلى أن قوله تعالى " سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ" يعنى من الحفظة من الملائكة يكتبون ما يصدر من الإنسان من القول أو الفعل، أي: سنأمر الملائكة الحفظة بإثبات ما يقوله ضدَّ هذا الكافر لنجازيه به في الآخرة.[1]

لقد تطرقت سورة الزخرف إلى أن الملائكة عباد الله تعالى وأنهم ينفذون أوامره، وتحدثت ايضاً عن مالك خازن جهنم والحفظة من الملائكة.

ثانياً: في سورة الزخرف

لماّ ردّ قوله تعالى في سورة الزخرف على قول المشركين إن الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16)﴾، ثم ردّ فساد مقالتهم هذه من جهة أخرى، وذلك دعواهم في الملائكة بأنهم إناث وهم عباد الله المكرمون بريئون من الأنوثة والذكورة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19)﴾، عطف على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، أي: حكموا بأن الملائكة إناث من غير أن يستند قولهم إلى علم ولا استدلال، فما لهم إلا أن يشاهدوا خلقهم لإثبات دعواهم، فأنكر الله عليهم وقال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، الاستفهام إنكاري لإبطال مقالهم، أي: ما حضروا خلق الملائكة حتى يعرفوا أنهم إناث، كقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾[سورة الصفات: 150]. وقال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، هذا تهديد ووعيد لتحقق العقاب على كذبهم يوم القيامة؛ إذ هي شهادة زور، وسيجازيهم الله على ذلك الكذب.[2]

وذكر قوله تعالى في سورة الزخرف واحداً من الملائكة باسم "مالك" الذي وكله الله تعالى بنار جهنم في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77)﴾، أي: نادى المجرمون حين يئسوا من تخفيف عذاب النار مالكاً خازن جهنم: لِيُمِتْنا ربك فيريحنا من أهوال جهنم،

---

[1] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ج2 – ص321؛ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن أمين الدين الإمامي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1986، ج6 – ص817؛ ابن الجوزي، زاد المسير، ج5 – ص261.

[2] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص248؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص183-184.

ثم يجيب لهم مالك: إنكم مقيمون في العذاب دائماً. و"مالك" اسم الملك الموكّل بجهنم،[1] وقال القرطبي: "وهو خازن جهنم، خلقه لغضبه، إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضاً."[2] وقد سمى القرآن الملائكة الموكلين بالجنة وجهنم باسم"خزنة" كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا...(71)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا...﴾[سورة الزمر: 73]، ومن المحتمل أن يكون "مالك" رئيسَ خزنة جهنم، والله أعلم.

ثم ذكر قوله تعالى الملائكة الحفظة الذين يكتبون ويحفظون ما الذي يفعل كل أحد سرّاً وعلانيةً، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)﴾، أي: هل يظن الكافرون أننا لا نسمع ولا نعرف ما أسرّوا أو أعلنوا،؟ بلى، نحن نسمع ونعرف ذلك، ورسلنا من الملائكة أيضاً يسجلون جميع الأعمال التي صدرت منهم من قول أو فعل، وصغير أو كبير. والرسول هنا الملائكة الحفظة الذين يكتبون أعمال الناس من جملتها، ما ذُكرَ من سرّهم وجهرهم، ويلازمونهم أينما كانوا. والمضارع في قوله" يَكْتُبُونَ" للاستمرار والتجديد، أي: يجددون الكتابة كلما تجدد ما يقتضيها؛ لأن الكتابة أوقع في التهديد، حيث إن من يعرف أن أعماله محصاة مسجلة، يتجنب ما يخاف عاقبته.[3]

التناسق بين السورتين في وجوب الإيمان بالملائكة:

تبين بهذه الآيات أن الملائكة عباد الله تعالى المقرّبون، ووظفهم الله تعالى في تنفيذ مختلف أوامره، منهم جبريل عليه السلام الذي نزل بالوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، ومالك خازن النار الذي وكّل بجهنم، والملائكة الحفظة الذين وُكّلوا لإحصاء واحتفاظ أعمال الناس. وجاء الحديث عنهم وعن وظائفهم في سورتي مريم والزخرف أيضاً، وفي تناولهما هذا الموضوع مع الموضوعات المشتركة الأخرى في كلتيهما إشارة إلى تناسقهما في هذا الموضوع بأنهما متشابهتان في تناول الموضوعات الفرعية.

---

[1] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ج3 – ص197؛ الطبري، جامع البيان، ج21 – ص640.

[2] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16 – ص116.

[3] انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج7 – ص55؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8 – ص56.

المطلب الثاني: عداوة الشيطان لبني آدم

إن عداوة الشيطان لبني آدم ثابتة في القرآن الكريم، وهو وقبيله لَيُعاذُون الناس ليصدّوهم عن الصراط المستقيم، ويضلّوهم في الحياة الدنيا فيكونون خاسرين في الآخرة، وبدأت هذه العداوة حين خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وحين أمر الله تعالى إبليس أن يسجد لآدم عليه السلام تعظيماً له، ولكن أبى أن يكون من الساجدين حسداً له، فأصبح من الكافرين المرجومين من رحمة الله تعالى، ثم أنظره الله تعالى إلى يوم القيامة حتى يكون عدوّاً للإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[سورة البقرة: 36].

والشيطان في وزن فَيْعال، وأصله من كلمة "شَطَنَ"، وهو بمعنى البُعد عن الخير، وسمّي الشيطان بهذا الاسم لبعده عن الخير والحق وتمرده، وكل عاتٍ متمرّد من الجنّ والإنس والدوابّ يسمى شيطاناً أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...﴾[سورة الأنعام: 112]. وقيل إن معنى "الشَطَنَ" الحبل الطويل، ويعني كأن الشيطان طال في الشر. وقيل إن الشيطان من "شاطَ- يَشيط" بمعنى هلك واحترق، والكثير على الأول.[1]

تناولت سورتا مريم والزخرف موضوع عداوة الشيطان للإنسان في الحياة الدنيا ليصدّ له عن طريق الله تعالى في بعض آياتهما.

أولاً: في سورة مريم

قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه في سورة مريم، ودعوته أباه إلى ترك عبادة الأصنام التي لا تسمع دعاءه ولا تبصر ما الذي يفعله للعبادة، ولا تجْلُبُ له نفعاً ولا تمنع عنه ضرراً، ودعوته إياه إلى اتباعه عليه السلام في رسالته ليهديه الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ

---

[1] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3 – ص183؛ ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار ابن الجوزي، ط1، 1421، ص480؛ أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص165؛ ابن منظور، لسان العرب، ج13 – ص237-238.

فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)﴾، ثم حذر إبراهيم عليه السلام أباه من أن يتبع الشيطان الذي هو عدو للإنسان بعبادته الأصنام، فقال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)﴾، أي: يا أبي، لا تطع الشيطان في عبادتك هذه الأوثان، إن عبادة الوثن عبادة الشيطان، لأن الأصنام لا تدعوهم لعبادتها، ولكن الشيطان يدعوهم ويوسوس إليهم لعبادة الأصنام ليضلهم ويغويهم عن عبادة الله تعالى، والشيطان هو عدوّ الإنسان الذي لا يريد به إلا كل هلاك وخزي، وقد عصى الله تعالى حين أمره أن يسجد لآدم عليه السلام فأبى. ولم يذكر إبراهيم عليه السلام عداوة الشيطان للإنسان، واقتصر من جنايات الشيطان على عصيانه لله تعالى، وفي هذا إشارة إلى ارتقاء همة إبراهيم عليه السلام في الربوبية، وإشارة أيضاً إلى أن العصيان أسُّ سائر الجنايات ونتيجة عداوته آدم عليه السلام وذريته. وتكرر ذكر الشيطان في مقام الإضمار لزيادة تقرير عداوة الشيطان والتنفير منه.[1]

ثم يختم إبراهيم عليه السلام كلامه بتحذيره من عذاب الله تعالى ومفارقة الشيطان في الدنيا وفي عذاب الآخرة بأسلوب الرفقة والشفقة، قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾، أي: يا أبي، إني أخاف أن يصيبك عذاب من الله تعالى في الآخرة بسبب إصرارك على عبادة غيره وموتك على ذلك الحال، فتكون موالياً للشيطان ورفيقاً له في النار.

وذهب المفسرون في معنى ولاية الشيطان هنا إلى عدة وجوه: الأول: أن يكون قريناً في اللعن وعذاب الآخرة، والثاني: وليّاً أي تالياً للشيطان يليه، كما يسمى المطر الذي يأتي تالياً وليّاً، والثالث: استوجب عذاب الله مع الشيطان في النار بسبب معيته في الدنيا وإغوائه له[2]، كقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[سورة النحل: 63]، وذهب الزمخشري إلى أن ولاية الشيطان ومعيته مع الإنسان أكبر من العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[سورة التوبة: 72]، وكذلك ولاية الشيطان أكبر من العذاب نفسه وأعظم.[3] ويتبين بذلك أن الشيطان عدوّ مبين للإنسان، ويريد أن يصده عن السبيل، إذا كان العبد يتبع الشيطان في الكفر والمعاصي، يكون قريناً للشيطان في الدنيا وفي عذاب النار.

---

[1] الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص21-22؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5 – ص267، بتصرف، (بتصرف).

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص545، (بتصرف)؛ وانظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4 – ص12.

[3] الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص22.

ولما أقام تعالى الحجة الباهرة المتعلقة بحقيقة البعث على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)﴾ أكدها بالقسم باسمه تعالى تحقيقاً للأمر وأكد بعثهم مع الشياطين الذين يضلونهم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)﴾، أي: فوربك يا محمد لنجمعن هؤلاء المنكرين البعث يوم القيامة مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم، ثم لنأتين بهم أجمعين قاعدين على رُكَبِهم في هوان وذلة.[1]

وذكر قوله تعالى بأنّ حشر الكافرين في الآخرة سيتحقق مع شياطينهم؛ لأن الشياطين كانوا أعداءً للناس وسبّبوا ضلالهم، وأصبحوا قرناءَ للناس في الدنيا، وستبقى مرافقتهم في الآخرة، كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)... حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)﴾.

وبين قوله تعالى حال الكافرين مع شياطينهم الذين يدفعونهم إلى الكفر والمعصية في الدنيا، ومصاحبتهم معهم في كل أمورهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83)﴾، أي: ألم تعلم يا محمد أننا سلّطنا الشياطين على أهل الكفر، فتحركهم بالإغواء والإضلال وتزعجهم إلى معاصي الله تعالى.

واختُلف في معنى "أرسلنا"، وقال بعضهم إنه "سلّطنا عليهم"، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ...﴾[سورة النحل: 100]، وذهب بعضهم إلى أن معناه "قيّضنا لهم"، كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)﴾، وقال بعضهم إنه "خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم منهم مما ذكر"[2]، وكلّ الوجوه متقاربة في المعنى.

والأزُّ: التهييج وشدة الإزعاج، أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات.[3] ويظهر بذلك أن الشيطان يكون قريناً للكافرين في الدنيا بعدم إيمانهم بالله ورسوله، وإصرارهم على الكفر والمعصية، ولا تزال عداوة الشيطان للإنسان حتى يوم الآخر.

ثانياً: في سورة الزخرف

وجاء الذكر بعداوة الشيطان لبني آدم وبمرافقته مع الكافرين في الدنيا والآخرة في سورة الزخرف في بعض الآيات، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ

---

[1] انظر: أبو حيان، البحر المحيط ج6 – ص195؛ الشوكاني، ج3 – ص386.

[2] انظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج7 – ص259.

[3] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج3 – 43.

(36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)﴾، أي: ومن يتعامَ ويتجاهل عن القرآن والعمل به، نهيئ له شيطاناً لا يفارقه فيوسوس له ويغويه. العشَا ضعف البصر في العين، والمراد هنا عمى البصيرة وضعف إدراكها للخير.[1]

وفي هذه الآية إشارة إلى عداوة الشيطان للإنسان من وجهين: أولاً أعرض الكافرون عن القرآن بسبب وسوسة الشيطان لهم، وثانياً قُيّض الشيطان لهم لأجل مصاحبتهم ومقارنتهم، واتباعهم له من قبل.[2]

ثم يخبر تعالى أن الشياطين الذين قيضت لمن يعش عن القرآن لَيمنعونهم عن سبيل الحق وطريق النجاة بالوسواس، ومع ذلك هم يحسبون أنهم على الهداية والصراط المستقيم، خسران بعد خسران. ثم يتبرأ الكافر في الآخرة من شيطانه القرين ويتمنى أن يكون بينه وبين شيطانه بعد المشرق والمغرب ولكن هيهاتَ، وسيكون الشيطان قريناً له في عذاب النار أيضاً، وسيكونون مشتركين في العذاب فلا يخفف عنهم منه شيء. وهكذا يحذرنا الله تعالى من قرين السوء في الدنيا والآخرة مثل الشيطان وعداوته للإنسان.

وجاء التحذير من الله تعالى للمؤمنين من عداوة الشيطان وإغوائه لهم في آية أخرى أيضاً في سورة الزخرف، قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)﴾، أي: يقول الله تعالى للمؤمنين: لا يعدلنكم الشيطان عن اتباع الحق والصراط المستقيم بوسوسته إليكم، وبتزيينه لكم الكفر والفواحش، وإنه لكم عدو مبين من عهد أبيكم آدم عليه السلام، وإن الإنسان العاقل يحذر من مكائد عدوّه ولا يتبعه.[3]

التناسق بين السورتين في موضوع عداوة الشيطان لبني آدم:

1- لما ذكر تعالى مرافقة الشيطان للكافرين في الدنيا ووسوسته وإغرائه لهم ليصدهم عن الصراط المستقيم في سورة مريم، عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83)﴾، أكد ذلك قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37)﴾.

---

[1] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج7 – 228.

[2] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص209-210.

[3] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص245.

2- لما ذكر تعالى أن الشيطان يكون قريناً للكافر في الدنيا، وأخبر أن مقارنته لا تزال في الآخرة بسبب إضلال الشيطان له، واتّباع الكافر له في الكفر والمعصية، ويكونون في العذاب مشتركين، وذكر تعالى في سورة مريم في قصة إبراهيم عليه السلام وقوله لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)﴾، جاء نفس المعنى في سورة الزخرف أيضاً في هذه الآية: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)﴾.

المطلب الثالث: الرد على من يزعم الشفاعة للكافرين يوم القيامة

"الشَفْعُ والشَفَاعَة مصدر كلمة شَفَعَ، وهو في اللغة ضد الوتر وهو الزوج، ويقال: شفعت الشيء إذا ضممته إلى الفرد، وشفعت في الأمر شفعاً وشفاعةً إذا طلبته بوسيلة أو ذمامٍ، والشَّفاعةُ كلام الشَّفِيعِ لِلْمَلِكِ في حاجة يسألُها لغيره، وشفع إليه بمعنى طلب إليه، واسْتَشْفَعْتُه إلى فلان أي سألته أن يَشْفَعَ لي إليه، والشفيع صاحب الشفاعة."[1]

والشفاعة في الاصطلاح: "الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة."[2] والمقصود من الشفاعة هو شفاعة الشافعين عند الله تعالى يوم القيامة للمذنبين، حيث إنهم يريدون من الله تعالى أن يتجاوز عنهم بفضله وكرمه، وأن لا يعذبهم في الجحيم.

والشفاعة يوم القيامة لا تكون إلا بإذن الله تعالى للشافع والمشفوع له كما قال الله تعالى في عدة آيات في القرآن: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[سورة البقرة: 255]، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[سورة النجم: 26]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...﴾[سورة سبأ: 23]، ومع ذلك يزعم الكافرون أن هناك لهم الشفاعة يوم القيامة، حيث يشفع لهم الشركاء الذي أشركوا بالله آلهةً أخرى، فردّ الله تعالى عليهم في زعمهم الباطل هذا في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[سورة يونس: 18]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ

---

[1] أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص166؛ ابن منظور، لسان العرب، ج8 – ص183-184؛ فيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي ثم الحموي، مصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، ج1 – ص317.

[2] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص457-458.

مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾[سورة الروم: 13]، وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾[سورة الزمر: 43].

أولاً: في سورة مريم

جاء الردّ على الكافرين في دعوى الشفاعة لهم يوم القيامة في سورة مريم أيضاً، عند قوله تعالى عن كفار قريش الذين يعبدون من دون الله آلهةً ليكونوا لهم وسيلة إلى الله في الآخرة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81)﴾، أي: اتخذ هؤلاء المشركون أصناماً يعبدونهم من دون الله حتى يتعززوا بها، ويكونوا لهم عند الله شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من عذاب الآخرة. والعزّ هنا: "العموم في النصرة والمنفعة وغير ذلك من وجوه الخير."[1] ثم ينكر تعالى عليهم في هذا الإدعاء ويخبرهم أنه ليس الأمر كما زعموا، فقال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)﴾، أي: يرفض هؤلاء المشركون عابدتَهم يوم القيامة ويتبرؤون منهم ويكونون ضداً للأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف: 6].

ولما ذكر تعالى حال المتقين والمجرمين وسوق الفريق الأول إلى الرحمن والفريق الثاني إلى النار، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86)﴾، أخبر تعالى أنه ليست هناك شفاعة للعباد في الآخرة إلا من اتّخذ عند الله عهداً، وقال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)﴾، أي: لا يملك أحد الشفاعة لغيره في يوم الآخرة، إلا إذا كانوا قد اتخذوا عند الله جل وعلا عهداً. وقوله " لَا يَمْلِكُونَ" أي: لا يستطيعون، لأن الملك يطلق على القدرة والاستطاعة، والضمير فيه للعباد كلّهم، بدلالة ذكر المتقين والمجرمين في الآيتين قبلها،[2] وبذلك يعمّ كل المخلوقات من الإنس الجن والملائكة، ويفيد أنهم لا يستطيعون أن يشفعوا لغيرهم إلا أن يأذن الله تعالى لهم بذلك ويرضى. واختلفوا في معنى "العهد"، وقال بعضهم – وهذا الراجح- إنه شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قاله ابن عباس، وقال بعضهم إنه العمل الصالح، وقال بعضهم إنه الصلاة.[3] وهذه الآيات تردّ على من يزعم الشفاعة من الكافرين يوم القيامة، والشفاعة بيد الله تعالى وهو يمنحها لمن يشاء من عباده، ولا تستطيع آلهتهم أن تشفع لهم، وهذا ادعاء باطل.

---

[1] الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص42؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، ج4 – 31.

[2] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص45؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – 169.

[3] انظر: الطبري، جامع البيان، ج18 – 255-256؛ الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج7 – ص261.

ثانياً: في سورة الزخرف

تحدث تعالى عن من يزعم الشفاعة للكافرين يوم القيامة في سورة الزخرف أيضاً، فلمّا أنبأ الله تعالى أن له ملكَ السموات والأرض وما بينهما: ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)﴾، أخبر تعالى أن ما يعبد الكافرون من دون الله لا سيتطيعون أن يشفعوا لهم يوم القيامة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)﴾، أي: لا يقدر هؤلاء الذين يعبدون من دون الله الشفاعة إلا من آمن بالله تعالى وحده وهو يعلم ما شهد به على بصيرة، فشفاعته مقبولة عند الله تعالى بإذنه ورضاه.

وذكر المفسرون في معنى هذه الآية قولين: أحدهما: أن الذين يدعون من دون الله تعالى هم الملائكةُ وعيسى وعزيزٌ عليهم السلام، والمعنى أن الملائكة وعيسى وعزيزاً لا يشفعون إلا فيمن شهد بالحق وهو يعلم بالتوحيد، وثانيهما: أن الذين يدعون من دون الله تعالى هم كل معبود من دونه، والمقصود من قوله: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ الملائكة وعيسى وعزيزٌ عليهم السلام، وبذلك يكون المعنى أن الأصنام وغيرها التي عبدها الكافرون لا تملك الشفاعة، واستثني منهم الملائكة وعيسى وعزيزٌ عليهم السلام بأن يمنحهم الله الشفاعة، إذ هم ممن شهد بالحق.[1] وعلى كلا الوجهين يردّ قوله تعالى على الكافرين الذين يعتقدون أن الأصنام والأوثان وغيرها التي يعبدونها ستشفع لهم في الآخرة، كما أخبر قوله تعالى عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[سورة يونس: 18]، وفي الآية إشارة أيضاً إلى وجود الشفاعة التي منحها الله تعالى لعباده من الملائكة والنبيين والصالحين من الناس بإذن الله تعالى ورضاه.

التناسق بين السورتين في الردّ من يزعم الشفاعة للكافرين في الآخرة:

إذا استقرأ أي واحد القرآن الكريم من أوله إلى آخره يجد أن الآيات التي تبطل ادعاء شفاعة الأوثان وغيرها من الآلهة التي عبدها الكافرون والمشركون لله تعالى تأتي بفعل النفي نحوَ "لا تَنْفَعُ" كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾[سورة طه: 109]، أو بفعل "لا تُغْنِي" كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾[سورة النجم: 26]، أو بفعل "لا يُقْبَلُ" كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[سورة البقرة: 48]، إلا في سورتي مريم والزخرف، حيث أتى التعبير عنها فيهما بفعل النفي "لا يَمْلِكُ" التي تفيد عدم القدرة والاستطاعة، كما جاء في سورة مريم: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)﴾، وكما جاء في سورة الزخرف: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ

---

[1] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج27 – ص656؛ أبو حيان، البحر المحيط، ج8 – ص29.

دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)﴾، ولم يذكر نفي الشفاعة بالمُلْك إلا في هذين الموضعين، وفي اختصاص هذا التعبير في هاتين السورتين إشارة إلى تناسقهما في هذا الموضوع.

المطلب الرابع: الجنة ونعيمها

لمّا خلق الله تعالى الإنسَ والجنّ وجعل هذه الدنيا ميدان الامتحان والبلاء ليميّز الخبيث من الطيب منهم وليشهدوا على أنفسهم، أعدّ لعباده الصالحين الذين نجحوا في امتحان الحياة الدنيا بإيمانهم بالله ورسله واتّباع أوامره واجتناب نواهيه، الجنةَ في الآخرة مكافئة على أعمالهم الصالحة. والجنة هي دار الثواب والنعيم لعباد الله الصالحين، والقرآن الكريم يبين مزيات الجنة ونعيمها بتصوراتٍ مختلفة ليقرّب جمالها إلى عقول الناس في آيات كثيرة مع أنها بعيدة عن مدارك البشر، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[سورة البقرة: 25]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[سورة الرعد: 35]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[سورة محمد: 15].

ويصور الله تعالى نعيم الجنة في القرآن ليرغّب عباده إلى الإيمان به والعمل الصالح، وليبشرهم بما أُعدّ لهم من النِّعم واللذّات والفرح والسرور فيها في آيات كثيرة.

أولاً: في سورة مريم

لمّا ذكر تعالى قصة عديد من الأنبياء ومن اتبعهم بإحسان من الصالحين، ومدحهم بصفات جليلة في سورة مريم، وبعد هذه القصص أثنى عليهم أجمعين بإيجاز في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)﴾، وبعد هذا المدح والثناء عليهم ذكر قوله تعالى صفة الخلف الذين جاؤوا بعدهم ممن أضاعوا أوامر الدين واتبعوا شهواتهم، وذكر عاقبتهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59)﴾، ثمّ استثنى تعالى من هؤلاء العصاة من تاب ممّا عملوا من السيئاتِ وآمنوا بالله تعالى بإخلاص، وعملوا بموجبات إيمانهم بالأعمال الصالحة، وبشرهم بالجنة في الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِلَّا

مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60)﴾، أي: هذا العقاب لهؤلاء المضيعين للصلاة والتابعين للشهوات، إلا الذين تابوا منهم ورجعوا إلى الإيمان بالله وبرسوله، وعملوا عملاً صالحاً، فيغفر الله لهم ذنوبهم، وهم يدخلون الجنة ولا يُنقصون شيئاً من جزاء أعمالهم.[1]

ثمّ وصف الله تعالى الجنة التي وُعِد التائبون من ذنوبهم بمختلف الأوصاف، حيث قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61)﴾، والعَدْنُ: الاستقرار والثبات[2]، أي: جناتُ خُلْدٍ لا نهاية فيها ولا زوال، مخالفاً حال الجنان في الدنيا التي لا تدوم، أي: هذه الجنات التي وعد الرحمن عباده المؤمنين أن يدخلوها وهي غائبة عنهم غير حاضرة جنات أبدية لا نهاية لها ولا زوال، وهذا وعد من الله سيتحقّق لا محالة. ثمّ يرسم تعالى صورة للجنة ولأحوال أهلها فيها، حيث قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62)﴾، أي: لا يسمع هؤلاء المؤمنون في الجنة فضول الكلام، ولكن يسمعون قول السلام. والسلام اسم جامع للخير، ويجوز أن يكون معناه هنا تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الله وتسليم الملائكة عليهم، أو كل الكلام السالم من العيب والنقيصة.[3] والمقصود من قوله ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ استغراق الزمان ودوام الرزق، ولا يقصد الوقتان المعلومان، إذ ليس في الجنة صباح ومساء، أي: أرزاقهم من مختلف النعم مستمرة حيثما طلبوا، وفي أيّ وقتٍ رغبوا، والجملة الإسمية في قوله ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾ تفيد دام الرزق وثباته كذلك.[4]

وبعد أن وصف الله تعالى الجنة بهذه الأوصاف، أشار إلى علوّ رتبتها وما هو سببها، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)﴾، أي: هذه الجنة التي وصفتها لكم أيها الناس بتلك الأوصاف الرائعة، هي التي أجعلها ميراثاً لعبادنا المؤمنين المتقين في الآخرة. والتعبير هنا بقوله ﴿نُورِثُ﴾ استعارة، أي: نبقي عليهم الجنة من ثمرة تقواهم كما نبقي على الوارث مال المورّث، وذهب بعض المفسرين إلى أن الوراثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق؛ لأنها لا تُعْقب بفسخٍ ولا استرجاعٍ، ولا إبطالٍ.[5]

---

[1] انظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج8 – ص473-474؛ سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ج9 – 51.

[2] الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص553.

[3] انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج5 – ص242-243؛ الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص29.

[4] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص554؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص138.

[5] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص30؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4 – ص15؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5 – ص273.

ثانياً: في سورة الزخرف

قد تحدث تعالى عن الجنة وعن أوصاف نعيمها في سورة الزخرف أيضاً في بعض الآيات كما يلي:

لمّا هدّد قوله تعالى الكافرين بمجيء يوم القيامة بغتة، وأخبر أن كل خُلّة أو صداقة لغير الله تعالى تنقلب إلى عداوة يومَ القيامة، حيث قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67)﴾، استثنى منهم العباد المؤمنين المتقين، وسلّاهم بأن ليست لهم في الآخرة الخشية من العقاب والحزن على فراق نعيم الدنيا بقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69)﴾.

ثمّ بشّر قوله تعالى هؤلاء المؤمنين المتقين بالجنة، ووصف أنواع نعيمها ترغيباً وتشويقاً لهم، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)﴾، أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمناتُ تسرون وتكرمون، ويدور عليهم خُدَّامهم من الغلمان المخلدين بطعامهم في الصحاف وبشرابهم في أكواب الذهب والفضة. والصِّحَافُ جمع صَحْفَةٍ، وهي الإناء لوضع الطعام والفاكهة، والأكواب جمع كُوبٍ، وهو إناء للشراب من الماء أو الخمر لا خرطوم له ولا عروة.[1] وغير ذلك لهم كلّ ما اشتهت نفوسهم من الشهوات النفسية وما تتلذّذُ أعينهم برؤيته، وأنتم فيها أيها المؤمنون خالدون، ليس فيها الموت ولا الخروج منها، وهذا تمام نعيم الجنة.[2] ثمّ ذكر قوله تعالى سبب هذه النعم مشيراً إلى فخامة الجنة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ضمير "تلك" تشير إلى الجنة المذكورة أوصافُها وهي مبتدأ، والجنة خبر، أي: تلك التي بُيّنت أوصافها هي الجنة التي وُعدتم بدخولها، وفي قوله " أُورِثْتُمُوهَا" استعارة، شُبّه ما استحقوا بسبب أعمالهم الصالحة من نعيم الجنة بما يترك المرء لوَرَثَتِه من الأموال والأملاك،[3] وقال ابن عاشور: "المعنى: أُعطيتموها دون غيركم، بتشبيه إعطاء الله المؤمنين دون غيرهم نعيم الجنة بإعطاء الحاكم مال الميت لوارثه دون غيره من القرابة لأنه أولى به وآثرُ بنيله."[4] ثمّ ذكر تعالى نوعاً آخر للنعم الحسية التي تشْتَهِيها الأنفس لتتمّ

---

[1] أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص274؛ ابن منظور، لسان العرب، ج1 – ص729.

[2] انظر: ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص769؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص254-255.

[3] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص266؛ القاسمي، محاسن التأويل، ج14 – ص5285.

[4] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص256.

النعمة والغبطة وهي الفاكهة، قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)﴾، أي: ولكم في الجنة أيضاً من أنواع الفواكه والثمار غير الطعام والشراب فتأكلونها مهما أردتم.

التناسق بين السورتين في وصف نعيم الجنة:

بعد أن ذكر قوله تعالى أوصاف نعيم الجنة التي وعدها الرحمن عباده في سورة مريم، بيّن أنه تعالى يجعل الجنة ميراثاً لعباده المؤمنين المتقين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)﴾، وكذلك ذكر قوله تعالى إن المؤمنين سيرثون الجنة في الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة في سورة الزخرف، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72)﴾. ولم تأت هذه الإفادة بهذه الصيغة في القرآن الكريم إلا في سورة الأعراف، مشابهةً الآية التي في سورة الزخرف، قال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)﴾، وفي ذلك إشارة إلى تناسق سورتي مريم والزخرف في هذا الموضوع.

المطلب الخامس: جهنم وعذابها

لقد خلق الله تعالى الناس في هذه الدنيا ليؤمنوا به ويعبدوه وحده، وأرشدهم إلى الطريق المستقيم بإرسال الرسل إليهم، وأعد لمن أطاعه واتّبع أوامره الجنة، ولمن أعرض عن أوامره واتبع الشهوات عذاب جهنم، وهي جزاء الكافرين والمقترفين الكبائر في الآخرة، وهي دار الهوان والذلة، وهي نارٌ وقودها الناس والحجارة. وحذَّرنا الله تعالى في القرآن من النار، وبين أوصافها وأخبرَ عمّا فيها من الشدائد والأهوال لنعتبرها ونتّقيها باجتناب معاصي الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[سورة آل عمران: 131]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[سورة الكهف: 29]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)﴾[سورة الملك].

ولما كان القرآن الكريم كتاب بشارةٍ لمن آمن بالله وعمل الصالحات من جهة، ومن جهة أخرى هو كتاب إنذار للناس من سوء العاقبة بسبب الكفر والعصيان، وبذلك جاء التحذير من جهنم في كثير من المواضع في القرآن، وفي سورتي مريم والزخرف أيضاً.

أولاً: في سورة مريم

لما أقام قوله تعالى الحجة الدامغة المتعلقة بحقيقة البعث على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)﴾،

أكدها بالقسم باسمه تعالى تحقيقاً للأمر، وأكّد بأنهم سيدخلون جهنم جزاءً بما عملوا، فقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)﴾، أي: فوربك يا محمد لنجمعن هؤلاء المنكرين البعث يوم القيامة مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم، ثم لنأتين بهم أجمعين قاعدين على رُكَبِهم حول جهنم في هوان وذلة. والجِثِيُّ جمع جاثٍ، وهو البارك على ركبتيه[1]، وهو هنا في موضع الحال، أي: جاثين على ركبهم حول جهنم من شدة الأهوال. وقوله تعالى ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ يفيد إحضارهم لجهنم قبل أن يدخلوها، وهذا الحال للتدرج في إلقاء الرعب في قلوبهم بسبب خوف الموقف وروعة الحساب، ومعنى قعودهم على ركبهم بأنهم لا يقدرون أن يقوموا على أرجلهم من شدة الأمر والعذاب.[2]

ثم ذكر تعالى أن جميع الناس مؤمنهم وكافرهم سيردون جهنم في الآخرة، فينجي الله تعالى المؤمنين المتقين منها ويذر الكافرين فيها أبداً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)﴾، واختلف العلماء في المراد بورود النار في هذه الآية الكريمة على أقوال:

فذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالورود الدخول، ويُدلِّل أصحاب هذا القول بقوله تعالى الذي يلي آية ورود النار: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا(72)﴾، إذ ينجيهم الله تعالى بعد دخولهم جهنم، وكما جاءت كلمة الورود في القرآن الكريم بمعنى الدخول في الآيات الأخرى، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ...﴾[سورة هود: 98]، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[سورة الأنبياء: 99]، وكذلك يدخل الناس جميعاً فيها، وتكون جامدةً وبرداً على المؤمنين كما قال الله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[سورة الأنبياء: 69].

وقال بعضهم إن معنى الورود هنا الإشراف عليها والقرب منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ...﴾[سورة القصص: 23]،

وقال بعضهم إن معناه المرور على الجسر؛ لأنه منصوب عليها، فيَسْلَمُ أهل الجنة ويسقط أهل النار.[3]

---

[1] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص187.

[2] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص34-35؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص147.

[3] انظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج7 – ص252-253؛ ابن الجوزي، زاد المسير، ج5 – 255-257؛ النسفي، تفسير النسفي، ج2 – ص247.

والراجح أنه المرور على الجسر بدليل الحديث الصحيح.[1] ثم ذكر قوله تعالى أن المتقين لن يصيبهم عذابُ جهنم فينجي الله المتقين منها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا(72)﴾، أي: ثم نخرج المتقين من جهنم دون أن يذوقوا حرها، ونترك الكافرين فيها جاثين على ركبهم وخالدين.

وبيّن تعالى ما يظهر يوم القيامة من الفصل بين المؤمنين وبين الكافرين، وأخبرأنّ مصير المجرمين إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86)﴾، أي: يوم نجمع المؤمنين المتقين وافدين على ربهم في الجنة كما تفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم، ونحثّ الكافرين إلى جهنم بإهانةٍ واستخفافٍ عِطاشاً، كأنهم نَعَمٌ عِطاشٌ تساق إلى الماء، والورود: العِطاش؛ لأنّ من يرد الماء لايرده إلا لعطش، وحقيقة الورد: المسير إلى الماء.[2] وشُبِّه حالهم في جهنم بالأنعام العطشى تساق إلى الماء تحقيراً لهم ونكالاً بهم.

ثانيا: في سورة الزخرف

تحدث تعالى عن جهنم وذكر بعض أوصافها وأخبر عن أحوال أصحابها ومحاورتهم مع مالك خازن جهنم في سورة الزخرف أيضاً، وهذه الآيات كما يلي:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77)﴾

ولمّا ذكر تعالى قبل هذه الآيات حال المتقين الأبرار في الجنة تشويقاً للمؤمنين، أعقبه بذكر حال الكافرين المجرمين في جهنم تحذيراً لهم وتخويفاً بهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74)﴾، أي: إن الكافرين بالله والعاصين لأوامره سيدخلون جهنم وهم فيها خالدون، ووصف قوله تعالى عذاب جهنم بأنه دائم لا انقطاعَ فيه، قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75)﴾، أي: لا يخفف ولا ينقص منهم العذاب لحظةً، وهم يائسون من الخروج والخلاص منها، ثمّ بيّن أن ذلك العذاب جزاءُ ما كسبوا في الحاة الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76)﴾، أي: نحن ما ظلمنا هؤلاء الكافرين بعذابنا الدائم لهم، ولكن هم ظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الخالد

---

[1] روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم..."، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود، (806)، ج1 – ص160؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (182)، ج1 – ص163.

[2] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص865؛ الزمخشري، الكشاف، ج3 – ص44-45.

بكفرهم بالله تعالى وارتكابهم المعاصي. ثمّ ذكر قوله تعالى محاورة الكافرين مع مالك وهو خازن جهنم،[1] حيث قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77)﴾، أي: نادى المجرمون حين يئسوا من تخفيف عذاب النار مالكاً خازن جهنم: لِيُمِتْنا ربك فَيُريحَنا من أهوال جهنم، ثم يجيبهم مالك: إنكم مقيمون في العذاب دائماً.

التناسق بين السورتين في موضوع جهنم وعذابها:

بعد تحليل آيات سورتي مريم والزخرف هذه، يلاحظ أن جاءت تسمية الكافرين الذين هم أصحاب جهنم باسم المجرمين في سورة مريم، حيث قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86)﴾، وجاءت نفس التسمية في الحديث عن أصحاب جهنم في سورة الزخرف، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74)﴾، ومن الأمر العجيب أنه ما جاءت تسمية أصحاب جهنم باسم المجرمين إلا في هاتين السورتين. وذلك يشير إلى تناسقهما في هذا الموضوع.

المبحث الثالث: التناسق القصصي بين سورتي مريم والزخرف

ترتيب القصص القرآني في السور:

إن ترتيب سور القرآن الكريم وترتيب آياته أمر توقيفي، وأنزل الله تعالى القرآن على نبيّه صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام بالترتيب المعروف الآن، وذلك من أعظم معجزات القرآن وأبدعها، إذ أن في سمو نظمه وبديع ترتيبه أمراً عجيباً وتناسقاً كبيراً وأسراراً سامية، تتحير منها العقول، فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا النظم إلا الله تعالى.

وإن قصص الأنبياء وأخبار الأمم السابقة لها ترتيب عجيب بديع، كما كان في ترتيب موضوعات السور حيث أن بعض السور اشتملت على القصص وبعضها لم تشتمل، وكذلك جاء بعضها مكررة بشكلٍ كبيرٍ، وبينما ورد بعضها الآخر مرة واحدة، وأيضاً تختلف هذه القصص في كل سورة من حيث تقديم بعضها أوتأخيره، ويمكننا أن نوجز خصائص ترتيب القصص القرآني بما يلي:

1- إن القصص القرآني موزع على السور المكية والمدنية، غير أن السور المكية أوسع استعمالاً للقصص من السور المدنية.

2- إن هناك سوراً لم يذكر فيها شيء من القصص، كما أن هناك سوراً ذكرت فيها قصة واحدة، ولو استقرأ أي واحد القرآن لوجد أنّ نصف السور المكية تقريباً جاء فيها ذكر هذه

---

[1] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ج3 – ص197.

القصص، وأما السور المدنية فذُكر في قليل منها شيء من القصص كسورتي البقرة وآل عمران.

3- إن القصص القرآني كان موَزَّعاً توزيعاً موضوعياً على السور القرآنية، فسورة آل عمران مثلاً فصل فيها نبؤهم، وسورة مريم فصلت فيها قصة إبراهيم عليه السلام وبنيه وذريته.

4- إن القرآن الكريم لم يأْبَهْ كثيراً بالسرد التاريخي أو الترتيب الزمني في حديثه عن الأنبياء أو أقوامهم، وله منهج خاصّ وترتيب خاص متعلق بالمكي أو المدني، ومتعلق بما ذكر في هذه السور.

5- إن عدد السور التي ورد فيها القصص هي أربع وخمسون سورة، وأما من حيث الحجم فإن القصص القرآني يستوعب الربع من القرآن تقريباً.[1]

إن سورتي مريم والزخرف تحتويان قصص الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام متناسقة من حيث الترتيب والنظم، وسيحاول الباحث أن يبين ما كان بين سورتي مريم والزخرف من نوع هذا التناسق القصصي على قدر استطاعته في هذا المبحث.

المطلب الأول: قصة إبراهيم عليه السلام

إبراهيم الخليل عليه السلام هو أبوالأنبياء وهو من أولي العزم من الرسل، وله حظّ وافر في القرآن حيث جاء ذكره عليه السلام في كتاب الله تعالى كثيراً، وهو جدّ نبيّنا صلى الله عليه وسلم، وديننا الإسلام هذا هو دوامُ دينِ وملةِ إبراهيم عليه السلام، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[سورة الأنعام: 161]، وهو ولد ببابل في بلاد العراق،[2] وبعثه الله تعالى رسولاً إلى قومه الذين يعبدون الأصنام في ذلك المكان.

ومعلوم أن طريقة عرض القرآن لقصص الأنبياء متنوعة جداً، أحياناً هو يتكلم عن واحد من الأنبياء منذ ولادته كقصة موسى عليه السلام، وغالباً يَعرض على قصة الأنبياء منذ نبوتهم، حيث

---

[1] انظر: فاضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص83؛ الدقور، سليمان محمد، اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، رسالة دكتوره في التفسير وعلوم القرآن، جامعة اليرموك، عمان الأردن، 2005، ص200، 207.

[2] انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، قصص الأنبياء، مطبعة دار التأليف، ط1، القاهرة، 1968، ج1 – ص168.

يخبرنا عن وظيفتهم وهي الرسالة ودعوة قومهم إلى الله تعالى، كما جاء في قصة نوح وهود وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وعرض القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام بعد بعثته من الله تعالى رسولاً نبيّاً إلى قومه أيضاً، ولم يتحدث عن حياته قبل النبوة. وجاء الحديث عن إبراهيم عليه السلام في سورة مريم عندما هو دعا أباه إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، وأخبر قوله تعالى عن محاورتهم في هذه الأثناء بالآيات التالية:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)﴾.

وجدير بالذكر هنا أن نتكلّم عن حكمة ذكر قصة إبراهيم عليه السلام في هذه السورة ومناسبتها لمحور السورة بعدة وجوه:

الأول: إن من أهم ما اشتملت عليه هذه السورة الاهتمام بالأنبياء والرّسل السالفين، وإذ كان إبراهيم عليه السلام أبَا الأنبياء الذين فصلت قصتهم في هذه السورة، وأوّلَ من أعلن التوحيد إعلاناً باقياً، كان ذكر إبراهيم عليه السلام فيها يناسبها تماماً.

الثاني: إن المنكرين التوحيدَ فريقان: منهم من أثبت معبودًا غير الله حيّاً عاقلاً فاهماً وهم اليهود والنصارى، ومنهم من أثبت غير الله جماداً ليس بحيّ ولا عاقلٍ ولا فاهمٍ وهم عبدة الأوثان، فلمّا بين قوله تعالى الفريق الأول، أتبع ذلك ببيان الفريق الثاني وهم قوم إبراهيم عليه السلام الذين يعبدون الأوثان ليكون إبطالاً للمذهبين.

الثالث: إن سورة مريم جاءت بدايتها تحدثنا عن زكريا الوالد ويحيى الولد، وعن مريم الأم وعيسى الإبن عليهم السلام، وبعدها تحدث قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام وحواره مع أبيه، والحاصل فأن محور السورة دار على الأبوة والبنوة، وفي آخر السورة تحدث قوله تعالى عمّا يهزّ القلوب والمشاعر وما تكاد السموات تنفطر له وتخر الجبال هداً، وهو إسناد الولد إلى الله تعالى، ولعل

من ذلك السرّ ذكر قوله تعالى قصة الآباء والأبناء في هذه السورة، ثم ردّ علي من أثبت لله ولداً، وأكد أنه تعالى لا يشبه عباده –وهو خالقهم- وأن ليس له ولد.

الرابع: إن إبراهيم عليه السلام كان أب العرب، وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[سورة الحج: 78]، فكأنه تعالى قال للعرب إن كنتم مقلدين لآبائكم على ما تقولون: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف: 23]، ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلّهم قدراً هو إبراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الأوثان.[1]

قد استُهلّت قصة إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(41)﴾، وهذا عطف على قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ(16)﴾، الذي هو عطف على قوله تعالى في بداية السورة: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(2)﴾، أي: وَاذْكُرْ يا محمد في كتاب الله إِبْرَاهِيمَ خليل الرحمن عليه السلام، فاقصص على هؤلاء المشركين قصّته وقصة أبيه، وأنّه كَانَ صِدّيقاً نبياً. ثم أخبر قوله تعالى محاورة إبراهيم عليه السلام مع أبيه، فبدأ إبراهيم عليه السلام دعوته لأبيه بنداء الأدب والتلطف والحب، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)﴾، أي: اذكر إبراهيم حين قال لابيه بلطف وبرهان قاطع: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر أيّ شيء، ولا ينفعك ولا يضرك بشيء؟ وهذا استفهام للإنكار وللتعجب من حاله. واستخدم إبراهيم عليه السلام أسلوب التدرج في دعوة أبيه إلى الحق، حيث بدأ هنا بالإستفهام الإنكاري، ثم بالتقرير الخبري، فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)﴾، وأعلم أباه هنا أنه رسول من الله تعالى بأسلوب رقيق متواضعاً ومتأدباً أمامه، وبعد هذه المرحلة نهى أباه عن عبادة الشيطان بالنهي الصريح بقوله: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)﴾، إذ من يعبد الأصنام، يعبد الشيطان في الحقيقة، ثم في المرحلة الأخيرة هو حذّر أباه من سوء العاقبة وعذاب الله في الآخرة، وقال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾،[2] وبالرغم من هذا اللطف والترفق في الدعوة، أجاب أبوه بعُنْفٍ وتهديدٍ، قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾، وخاطبه أبوه بعنف ولم يقل له "يا بني" كما قال إبراهيم عليه السلام له "يا أبت"، وأراد منه أن ينتهي عن العيب على آلهته وتحقيرها، وهدّده بالرجم وطلب منه أن يفارقه زمناً طويلاً، ومع كل هذا أجاب

---

[1] الرازي، ج21 – ص545؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص111؛ حسن عباس، قصص القرآن، ص278، (بتصرف).

[2] نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج4 – ص452.

إبراهيم عليه السلام أباه بالرفق والشفقة قائلاً: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47)﴾، قابل غلظة أبيه باللين والسلام ووعده أن يستغفر له ربه عز وجل، لعله يهديه الصراط المستقيم ويوفقه إلى التوبة، ثم أعلن إبراهيم عليه السلام براءته مما عليه أبوه وقومه واعتزالهم، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)﴾، اعتزل إبراهيم عليه السلام إياهم بأن يهاجر إلى بلاد الشام، وبأن يهاجر أيضاً بدينه عن صنيعهم الذي كانوا يصنعون من عبادتهم غير الله[1]؛ إذ لم تنفع دعوته إلى التوحيد ونصائحه لهم، فلمّا تركهم وهاجر إلى الأرض المقدسة بأمر الله إليه وفي سبيله، وهبه الله تعالى ذرية طيبة، وجعل من نسله الأنبياء، وجعل لهم الثناء الحسن على ألسن الناس، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)﴾، وهكذا تنتهي قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه في سورة مريم.

وقد سجلت آيات سورة الزخرف أيضاً بإيجازٍ البراءة الإيمانية من الكفر والكفار التي أعلنها إبراهيم عليه السلام وهو يخاطب أباه وقومه خطاباً صريحاً في هذه الآيات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)﴾.

وإذا أنعمنا النظر في سورة الزخرف، نرى أن ذكر قصة أبراهيم عليه السلام وذكر براءته من أبيه وقومه بسبب إصرارهم على الكفر وعبادة الأصنام يتلاءم ذكرها تماماً مع هذه السورة، وتتطلّبه موضوعاتُها، حيث إنّ سورة الزخرف تردّ على مختلف شبهات مشركي العرب ودعواتهم الباطلة بأدلة باهرة.

ولما ادّعى المشركون من أهل مكة أن عبادتهم للأصنام بمشيئة الله تعالى، ردّ الله تعالى عليهم أنهم لا يستندون إلى أي علم ولا دليل عقلي، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)، ثم ردّ عليهم أيضاً أنهم لا يستندون إلى أي دليل نقلي، حيث قال تعالى لهم مستخدماً بالاستفهام الإنكاري: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)﴾، وبعد هذه الأدلة العقلية والنقلية ما بقي لهم من مستند إلا أن يدّعوا أنهم يسيرون على خطى آبائهم حيث وجدوهم كذلك يفعلون، وهكذا يتعذر كل الكافرين والمشركين عبر التاريخ، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ

---

[1] انظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج7 – ص240؛ الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص547-548.

مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)﴾، وبعد هذه المناقشة والمحاورة تأتي الآيات التي تشير إلى براءة إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه ومن عبادتهم الأوثان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26)﴾، كأنه تعالى يقول لهم: إذا كنتم صادقين في اتباع آبائكم فكان لا بد لكم أن تتبعوا أباكم الأشرف وهو إبراهيم عليه السلام الذي تفتخرون به وتنتسبون إليه، وتدّعون أنكم على دينه، فكيف تعبدون الأصنام.[1] وكذلك تناسب ذكر براءة إبراهيم عليه السلام من عبادة الأوثان مع محور سورة الزخرف تمام التناسب.

إذا تأملنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27)﴾، فالمعنى يكون: اذكر يا محمد حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: إنني بريء من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، ولكن أعبد الله الذى خلقنى بقدرته، وهو جلّ وعلا سيهدينِي إلى الصراط المستقيم، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)﴾، فالمعنى: وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد باقية في ذريته، ولا يزال فيهم من يعبد الله تعالى ويوحده.[2]

التناسق بين السورتين في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام:

إذا أنعمنا النظر في القرآن نرى أن دعوة إبراهيم عليه السلام أباه وقومه إلى التوحيد ومحاورته معهم وردت في سور مختلفة مثل سور الأنعام ومريم والأنبياء والشّعراء والصّافات، ولكن لم يرد ذكر براءة إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه وممّا يعبدونه من دون الله في هذه السور كلها إلا ما جاء في سور الأنعام ومريم والزخرف والممتحنة.

وجاءت براءة إبراهيم عليه السلام ممّا يعبد أبوه وقومه في سورة مريم في هذه الآية: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)﴾، ووردت براءته عليه السلام في سورة الزخرف أيضاً حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26)﴾، وذلك يشير إلى تناسق وتلاؤم السورتين في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام.

---

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص191-192؛ فضل حسن عباس، قصص القرآن، ص300-301.

[2] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4 – ص250.

المطلب الثاني: قصة موسى عليه السلام

موسى ابن عمران[1] عليه السلام رسول من الله تعالى أُرسل إلى بني إسرائيل، وهو من الأنبياء أولو العزم، أُنزل عليه كتاب التوراة وله شريعة مستقلة، ومعلوم أن القرآن قد تحدّث عنه أكثر من غيره من الأنبياء عليهم السلام، حيث جاء حديثه في كتاب الله عن زوايا مختلفة، وأخبر قوله تعالى عن مولده عليه السلام، ونشأته عند فرعون ملك مصر، ودعوته فرعون وملئه إلى دين الله، وخبره مع بني إسرائيل... إلى غير ذلك.

وجاء الحديث عن موسى عليه السلام في سورة مريم بإيجازٍ وفي سورة الزخرف أيضاً، على الرغم أنه لا يوجد تناسقٌ صريحٌ بين هاتين السورتين في ذكر قصة موسى عليه السلام، ومع ذلك جدير بنا أن نذكر حكمة مجيئهما في هاتين السورتين وتناسقهما مع محور السورة.

ورد الحديث عن موسى عليه السلام بعد ذكر إبراهيم عليه السلام مباشرة في سورة مريم، حيث قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)﴾.

ولمّا ذكر قوله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وذكر منّه تعالى عليه بهبة إسحاق ويعقوب ذرية طيبة، وجعلهم من الأنبياء، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)﴾، ثمّ قَفَّتْهُ قصة موسى عليه السلام؛ لأنه أشرف نبيّ من ذرية إسحاق ويعقوب عليهما السلام، وقُدّم ذكرُه على ذكر إسماعيلَ الذي جاء ذكره بعد ذكر موسى مباشرة لئلا ينفصِل عن جدّه يعقوبَ عليهما السلام.[2] وكذلك لمّا ذكر الله تعالى رحمته –ومحور السورة الرحمة- على عباده ورسله زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ذكر أيضاً رحمته على موسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

وجاءت قصة موسى في سورة الزخرف أيضاً، حيث تحدّثنا الآيات عن غرور فرعون واعتداده بنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا

---

[1] والدليل على أن اسم أبيه عمران ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام..."، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه و سلم إلى السماوات وفرض الصلوات، (165)، ج1 – ص151.

[2] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5 – ص269؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص126.

وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56)﴾.

إذا أنعمنا النظر في سورة الزخرف، وفي موضوعاتها ومحورها، نرى أن ذكر قصة موسى عليه السلام هنا يتناسب تمام المناسبة مع السورة، ويرى الباحث أن يشير إلى هذه المناسبة من عدّة وجوه:

الأول: قد ذكر قوله تعالى في بداية السورة إهلاك القرون الأولى بسبب استهزائهم برسولهم، حيث قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)﴾، فجاءت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وإهلاكه وقومه بالغرق مثالاً واحداً لذلك، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على استهزاء قريشٍ به.

الثاني: لمّا ذكر قوله تعالى طعن قريشٍ على الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر النبوة بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)﴾، ذكر الله سبحانه وتعالى مثالاً يشبه تلك الشبهة السقيمة في قصة فرعون حيث ادُّعِي أنه غني كثير المال والجاه، وأنه لا بد أن يكون الرسول الذي أرسل إلى الملك الكبير الغني هذا غنياً ذا مالٍ وجاهٍ، وجمال بيانٍ، حيث قال تعالى مخبراً عن قول فرعون: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)﴾، وبذلك يبين الله تعالى أن منطق الكفار واحدٌ، وأن ليس لهم حق اختيار الأنبياء، فالله يختصّ برحمته من يشاء.

الثالث: لمّا قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)﴾، أتبع هذه الآية مباشرة بقصة موسى وبعدها قصة عيسى عليهما السلام، إذ هما أكثر أتباعاً ممّن سبقهم من الأنبياء عليهم السلام، كلّ جاء بالتوحيد وإبطال عبادة غير الله تعالى.

الرابع: الغاية من إيراد هذه القصة هنا لأمرين: أحدها: أن منطق الكفار والجهال وشبهتهم في أمر الرسالة واحد، فلا يُبالى بها ولا يُلتفت إليها؛ لأن مفاتيح الرحمة بيد الله تعالى، والثاني: تسلية

النبي صلى الله عليه وسلم بأنّ فرعون كان على غاية كمال حاله في الدنيا، ولكنّه صار مقهوراً ومغلوباً، وسيلاقي أعداء النبي عليه السلام المصير نفسه.[1]

ويتبين بهذه الأمور أن ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون في سورة الزخرف في هذا السياق يتناسب تماماً مع محور السورة. وكذلك تتلاءم هذه القصة مع اسم السورة، ذلك أن معنى الزخرف –كما مرّ من قبل[2]- الذهب وهذا الأصل، ثم سُمِّيت كل زينةٍ زُخْرُفاً، وإذا تأمّلنا في كلام فرعون في هذه القصة نرى أنه يلزم لموسى عليه السلام أن يكون ذا مالٍ وجاهٍ، وأن يكون له أسورة من ذهب، حيث قال: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)﴾، ولا نجد الحديث عن غرور فرعون واهتمامه بزخارف الدنيا الزائفة هذه إلا في سورة الزخرف، وذلك يشير إلى أن توزيع القصص في القرآن توقيفي من الله تعالى، وأن للقرآن منهجاً رائعاً في عرض قصصه.

ويلاحظ أيضاً أن قصتي إبراهيم وموسى عليهما السلام قد وردتا متتاليتين في كلتا السورتين، حيث ذكرت أولاً قصة إبراهيم عليه السلام وبعدها قصة موسى عليه السلام، وإن المتأمّل للقرآن تأمّلاً دقيقاً يرى أن كلتا القصتين لم تأتيا متتاليتين في القرآن إلا في سورتي مريم والزخرف، وفي سورة الصافات فقط، وذلك أيضاً يشير إلى تناسقهما في ترتيب القصص.

المطلب الثالث: قصة عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام هو عيسى بن مريم بنت عمران، آخر الرّسل من أحفاد إبراهيم وإسحاق عليهما السلام الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل، وأحد من الأنبياء أولي العزم، وأُنزل عليه كتاب الإنجيل، وهو يلقب بألقاب عديدة، منها: المسيح، وروح الله، وكلمة الله، كما جاء في بعض الآيات الكريمة[3]، وقد ولدته مريم عليها السلام من غير أبٍ معجزة من الله تعالى.

جاء الحديث عن عيسى وأمه مريم عليهما السلام في القرآن كثيراً، حيث يخبر عن جوانب مختلفة من حياته، ويَعرض القرآن قصة مولده، ومعجزاته التي جاء بها إلى بني إسرائيل ودعوته لهم إلى توحيد الله، وينبّه أيضاً على علوّ مكانة أمه وعائلته آل عمران في مواضع مختلفة.

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، ج27 – ص641؛ أبو حيان، البحر المحيط، ج8 – ص20؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص223-224، (بتصرف).

[2] انظر إلى صفحة 20-21.

[3] انظر الآيات: آل عمران: 45؛ النساء: 171، المائدة: 75.

وقص القرآن لنا قصة مولد عيسى عليه السلام وإرساله نبياً إلى بني إسرائيل بشكل مفصّل في السورة التي سميت باسم أمه وهي سورة مريم، ومعلوم أن هذه السورة سميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة حمل السيدة مريم، وولادتها عيسى عليه السلام من غير أب، ولم تسمّ السورة في القرآن باسم إمرأة إلا سورة مريم، وهذا تكريم لها وتعظيم لشأنها.

وبدأت السورة الكريمة بقصة زكريا وبشارته من الله تعالى بابنه يحيى عليهما السلام على كِبر سنّه وعُقم زوجته، وهذه حادثة عجيبة، ثم ذكر تعالى قصة مريم وولادتها عيسى عليهما السلام من غير أب، وذلك أعجب منه، وقدمت أيضاً قصة زكريا ويحيى عليهما السلام لتكون تمهيداً ومقدمة لقصة مريم ومولد عيسى عليهما السلام.[1]

وتبدأ قصة مريم عليها السلام بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ(16)﴾، وهذا عطف على قوله تعالى في بداية السورة حيث بدأت بها قصة زكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)﴾، ثم يذكر قوله تعالى ما الذي جرى في حادثة حمل مريم وولادتها عيسى عليهما السلام، وما بعدها إتيانها بعيسى إلى قومه تفصيلاً، ولما جاءت به إلى قومه عجبوا منها وطعنوا عليها بالزنا، فأشارت مريم عليها السلام إليه بسبب صومها عن الكلام بأمر الله تعالى، وفي تلك اللحظة يتكلم عيسى عليه السلام وهو في المهد صبيّ ويعلن إلي بني إسرائيل أنه عبد الله ونبيّ من الله تعالى إليهم، وهكذا تبدأ حلقة عيسى عليه السلام في هذه السورة بهذه المعجزة حيث قال تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)﴾.

ونطق عيسى عليه السلام وهو في المهد أول ما نطق بأنه عبد الله ورسوله، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، وقد أثبت عبوديته لله تعالى أولاً، رغم أن المقام يلزمه أن ينزّه أمه عن التهمة، أزال التهمة عن الله تعالى؛ لأن إزالة التهمة عن الله جلّ وعلا أولى من تبرئة أمه، وكذلك إزالة التهمة عن الله تفيد إزالة التهمة عن مريم أيضاً.[2]

---

[1] انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4 – ص2304؛ عزة دروزة، التفسير الحديث، ج3 – ص147.

[2] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص537.

ثم وصف عيسى عليه السلام نفسه في كلامه بصفات عالية، وهي: اتصافه بالبركات ومنافع الدين، وهو برّ بوالدته ليس متكبراً ولا عاصياً، والتزامه بأوامر الله تعالى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وسلامته من كل سوء يوم ميلاده ويوم موته ويوم بعثه في الآخرة.[1]

ثم أشار قوله تعالى إلى اختلاف اليهود والنصارى في حقيقة عيسى عليه السلام، حيث إن اليهود كذبوه واستهانوا به، وحاولوا أن يقتلوه، والنصارى غالوا فيه وادعوا أنه ولد الله سبحانه، والله تعالى منزه عن ذلك وعن كل نقصان، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)﴾، ثم عاد قوله تعالى إلى كلام عيسى عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾، وعطفُ على قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(30)﴾، فهو تتمة كلام عيسى عليه السلام، وفيه تقرير لربوبيته تعالى، ودعوة إلى توحيد العبودية له وحده.[2]

ثم أخبر تعالى عن اختلاف اليهود والنصارى في حق عيسى عليه السلام وضلالهم فيه، حيث قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)﴾، أي: اختلفت الفرق من النصارى واليهود فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة، ومنهم من افترى على مريم عليها السلام بهتاناً عظيماً، وفي هذا نفي لأقوالهم الباطلة وآرائهم الفاسدة، وتهديد ووعيد شديد لمن كذّب على الله تعالى.[3]

وجاء الحديث عن قصة عيسى عليه السلام في سورة الزخرف أيضاً، حيث قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾.

وذِكر قصة عيسى عليه السلام في هذا السياق متناسب مع محور سورة الزخرف، حيث إن الله تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفريات قريش وأجاب عنها[4]، ومنها مجادلتهم الباطل مع النبي صلى

---

[1] انظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج8 – ص422.

[2] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج21 – ص541؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4 – ص2308.

[3] انظر: ابن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص493.

[4] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج27 – ص643.

الله عليه وسلم في حق عيسى عليه السلام، حيث روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكفار قريش: "إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير"، فقالوا "يا محمد ألست تزعم أن عيسى كان نبيًّا وعبداً من عباد الله صالحاً فإن كنت صادقاً فإن آلهتهم لَكَمَا تقولون"، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57)﴾.[1] ولمّا ضرب عيسى عليه السلام في القرآن وضرب المثل بالآلهة التي عبدت من دون الله، جادل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم وضربوا عيسى عليه السلام مثلاً لآلهتهم وشبهوه بها، وقالوا: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، الاستفهام هنا تقريري إذ هم يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم يفضل عيسى عليه السلام على آلهتهم، ويكون المعنى: فقد لزمك أنك جعلت من كنتَ تفضل أهلاً للنار، ثم بين تعالى نيتهم القبيحة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، أي: لا تهتمّ بما قالوه، فإنهم ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والخصومة بالباطل، وليس من أجل الوصول إلى الحق، وهم قوم شديدو الخصومة كثيرو اللَّدَدِ.[2] ثم بين قوله تعالى حقيقة عيسى عليه السلام تحقيقاً لبطلان جدالهم، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59)﴾، أي ما عيسى عليه السلام إلا عبد من عبادنا أكرمناه وأنعمنا عليه بالنبوة والرسالة، وليس ابنَ الله كما زعمت النصارى، وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل.

ثم أشار قوله تعالى إلى رسالة عيسى عليه السلام، ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده، حيث قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾، أي: ولما جاء عيسى عليه السلام لبني إسرائيل بالمعجزات الدالة على صدقه، قال لهم: قد جئتكم بالشرائع الصالحة، ولأوضح لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين، فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوني في أمري به من توحيد الله وشرائع الدين، والله ربيّ وربّكم لا غيره، فأخلصوا له العبادة وحده.[3] ثم أشار قوله تعالى إلى الفِرَق المتحزبة المختلفة في حقيقة عيسى عليه السلام مع وضوح الصراط المستقيم كفراً وعناداً، قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ

---

[1] أحمد بن حنبل، مسند، ج5 – ص85-86. نقله الألباني في السلسلة الصحيحة وحكم عنه بأنه : إسناده حسن رجاله ثقات، ج7 – ص632.

[2] انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ج7 - ص323-324؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25 – ص239؛ سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ج13 – ص92.

[3] انظر: نخبة من علماء التفسير، التفسير الموضوعي، ج7 – ص130.

الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾، واختلفت الفرق من اليهود والنصارى في شأنه وتفرقوا ثلاث فرق: نسطورية، ويعقوبية، ومَلْكَانِيَّة. وقالت اليعقوبية: هو الله بطريق الحلول، وقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت الملكانية هو ثالث ثلاثة مجموعها هو الإله.[1] وذُيل قوله تعالى بالتهديد والوعيد للذين ظلموا بشركهم مع الله غيره في الألوهية.

التناسق بين السورتين في ذكر قصة عيسى عليه السلام:

1- لمّا ذكر قوله تعالى خطاب عيسى عليه السلام إلى قومه وهو معلن أن الله تعالى هو ربه وربهم في سورة مريم، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾، جاء نفس كلام عيسى عليه السلام في سورة الزخرف: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64)﴾، وجاء كلام عيسى عليه السلام هذا في سورتي مريم والزخرف فقط، وفي سورة آل عمران.

2- لمّا أخبر قوله تعالى اختلاف اليهود والنصارى في حقيقة عيسى عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)﴾، جاءت نفس الإفادة في سورة الزخرف بنظم متشابه: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾، ولم تأت هاتان الآيتان المتشابهتان في القرآن إلا في سورتي مريم والزخرف.

3- ذكر الطباطبائي وجهاً رائعاً يفيد تناسق السورتين في قصة عيسى عليه السلام وقال: "قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ إلى قوله: ﴿ خَصِمُونَ﴾ الآية، إلى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم. والذي يتحصل بالتدبر فيها نظراً إلى كون السورة مكية ومع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾، هو ما أنزله الله من وصفه في أول سورة مريم، فإنها السورة المكية الوحيدة التي وردت فيها قصة عيسى بن مريم عليهما السلام تفصيلاً، والسورة تقص قصص عدة من النبيين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...(58)﴾، وقد وقع في هذه الآيات قوله: ﴿إِنْ

---

[1] انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5 – ص62-63.

هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، وهو من الشواهد على كون قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ إشارة إلى ما في سورة مريم."[1]

[1] الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، ط1، بيروت، 1997، ج18 – ص115.

الفصل الثالث: التناسق في متشابه النظم بين سورتي مريم والزخرف

معنى المتشابه لغة:

قال ابن فارس: "شبه: الشين والباء والهاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تشابُه الشّيء وتشاكُلِهِ لوناً وَوَصْفاً. يقال شِبْه وشَبَه وشَبيه. والشَّبَهُ من الجواهر: الذي يشبه الذّهَب. والمُشَبَّهات من الأمور: المُشْكِلات. واشتبه الأمران، إذا أشْكَلاَ."[1]

وقال ابن منظور: "الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ المِثْلُ، والجمع أَشْباهٌ، وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ ماثله وفي المثل مَنْ أَشْبَه أَباه فما ظَلَم، وأَشْبَهْتُ فلاناً وشابَهْتُه واشْتَبَه عَلَيَّ، وتَشابَه الشيئانِ واشْتَبَها، أَشْبَهَ كلُّ واحدٍ صاحِبَه وفي التنزيل: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ..﴾[سورة الأنعام: 99]، والمُشْتَبِهاتُ من الأُمور المُشْكِلاتُ والمُتَشابِهاتُ المُتَماثِلاتُ، والشُّبْهةُ الالتباسُ، وأُمورٌ مُشْتَبِهةٌ ومُشَبَّهةٌ مُشْكِلَة يُشْبِهُ بعضُها بعضاً"[2]

ويتبين لنا بعد هذه التعريفات اللغوية أن المتشابه يأتي على معنيين: الأول المماثلة، والثاني الإشكال والالتباس، كما جاء استعمال القرآن هذه الكلمة بكلا المعنيين، حيث قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ...﴾[سورة الزمر: 23]، آيات القرآن كلها متشابهة بعضها بعضاً من حيث النظم والفصاحة والبلاغة، والمقصود من المتشابه في هذا البحث هو المماثلة. وجاء معنى الإشكال عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[سورة آل عمران: 7]، والمتشابه في هذه الآية هو الخفى الذى لا يُدرك معناه وهو ما استأثر الله بعلمه.[3]

معنى النظم لغة:

قال ابن منظور: " النَّظْمُ التأْليفُ، ونظَمْتُ اللؤلؤَ أي: جمعته في السِّلْك، وكلُّ شيء قَرَنْتَه بآخر أو ضَمَمْتَ بعضَه إلى بعض فقد نَظَمْتَه، والانْتِظام الاتِّساق."[4]

---

[1] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3 – ص243.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج13 – ص503-504.

[3] انظر: الزمخشري، الكشاف، ج1 – ص366.

[4] ابن منظور، لسان العرب، ج12 – ص578.

المراد من متشابه النظم في القرآن:

من علماء البلاغة والتفسير من تحدث عن بديع نظم القرآن، واعتبره وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، منهم الباقلاني يقول: "إنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه... فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه منها: ما يرجع إلى الجملة. وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد."[1]

ويقول الخطيب الإسكافي في كتابه درة التنزيل في هذا الموضوع: "إني منذ خصّني الله بإكرامه وعنايته، وشرفني بإقراء كلامه ودرايته، تدعوني دواع قوية، يبعثها نظر ورَوِيَّة، في الآيات المتكرّرة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة، تطلباً لعلامات ترفع لُبس إشكالها، وتخصّ الكلمة بآياتها دون أشكالها..."[2]

والحاصل من هذه التعريفات أن المراد من متشابه النظم في القرآن اصطلاحاً هو: أن تجيء الآيات القرآنية متكررة في ألفاظٍ متشابهةٍ وصورٍ متعددةٍ وأساليب متنوعة، مع اتحاد المعنى وتناسقها في السياق.

وسيحاول الباحث أن يشير إلى تناسق سورتي مريم والزخرف من حيث متشابه الآيات، ومتفّق الكلمات، وإلى تناسقهما العددي في هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول: التناسق في متشابه الآيات بين سورتي مريم والزخرف

إن المتدبر لسورتي مريم والزخرف يرى الآيات المتشابهة التي تشير إلى تناسق السورتين في تأليف النظم وترتيبه بالعدد الكثير. ونستقصي هذه الآيات كما يلي:

الأولى: ذكر قوله تعالى كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد صبيٌ يعلن ربوبية الله تعالى إلى قومه حيث قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾، وجاء نفس كلام عيسى باختلاف يسيرٍ في سورة الزخرف عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

---

[1] الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، ص35.

[2] الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، درة التنزيل وغرة التأويل، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (30) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ط1، 2001، ج1 – ص217.

مُسْتَقِيمٌ (64)﴾، ولم تأت هذه الآية في القرآن إلا في هاتين السورتين، وفي سورة آل عمران[1] فقط. وإذا نظرنا إلى الآيتين في سورتي مريم والزخرف نرى زيادة حرف العطف "و" في سورة مريم، وزيادة ضمير الفصل "هو" للتأكيد. ويمكننا أن نشير إلى حكمة هذا الاختلاف بإيجاز:

لمّا ذكر تعالى كلام عيسى عليه السلام في سورة مريم، حيث قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30)﴾، وأعقب هذا بتعداد صفاته عليه السلام الجلية إلى قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)﴾، بعده جاء الكلام الذي يثبت حقيقة عيسى وينزه الله تعالى عن الولد، حيث قال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)﴾، ثم عاد الكلام إلى مقالة عيسى وهي تتمة قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾، وجاءت الآية هنا بحرف العطف ليحصل منه أنه كلام غير منقطع ومستأنف، بل هو معطوف على ما تقدمه من كلام عيسى عليه السلام ومتصل معه.

وأما الآية في سورة الزخرف جاءت بدون حرف العطف؛ لأن كلام عيسى عليه السلام لم يفصل بجملة معترضة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64)﴾.[2]

وأمّا مجيء ضمير التوكيد "هو" في آية سورة الزخرف خلافاً للآية في سورة مريم قد اقتضاه السياق، حيث بدأت قصة عيسى عليه السلام مع ذكر أمه في سورة مريم بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ(16)﴾، وبعدها جاءت عشرون آية دلّت على إيجاده وخلقه، وأنه عبد من عباد الله تعالى، وهو جلّ وعلا ربّه ومالكه، وأنه جاء بمعجزاتٍ تدلّ على صدقه في نبوته، وبذلك أُستُغني عن التوكيد بسبب الكلام المؤكد لحقيقة حاله عليه السلام. وأمّا الموضع في سورة الزخرف كان خالياً من الآيات الكثيرة الدالة على أنه عبد الله وأن الله تعالى ربه، وبذلك حسن توكيد الكلام صرفاً عن ادّعاء الناس أنه ابن الله سبحانه.[3]

---

[1] انظر: سورة آل عمران، الآية 51.

[2] انظر: الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1983، ج1 – ص306-307.

[3] انظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج1 – ص379-382.

الثانية: ورد قوله تعالى إخباراً عن اختلاف اليهود والنصارى في حق عيسى عليه السلام بعد الأدلة والمعجزات التي تثبت عبوديته لله تعالى ونبوته لهم في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)﴾، وجاءت الآية نفسها باختلاف يسير في سورة الزخرف أيضاً، وقال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)﴾، ولم تأت هاتان الآيتان في القرآن إلا في سورتي مريم والزخرف فقط. وجاء الويل في سورة مريم للذين كفروا، وفي سورة الزخرف للذين ظلموا، وأشار الخطيب الإسكافي إلى حكمة الاختلافهم اليسير هذا بقوله: "الكفر أعظم من الظلم وإن كان كلّ كافر ظالماً لنفسه، فلمّا قالوا في عيسى عليه السلام إنه ابن الله كفروا بذلك وظلموا أنفسهم، فأخبر الله تعالى عنهم في القصة التي شرح فيها ابتداء أمره بالوصف الذي يتضمّن لفظ أكبر الذنوب، وهو الكفر. ولمّا أجمل في السورة الثانية ما فصله في الأولى وصفهم بالوصف الذي يدلّ على أنهم حرّموا أنفسهم ما عُرضوا له من الثواب، وأوجبوا عليها أليم العذاب، فبذلك ظلموها، أعني بالكفر الذي كان منهم لمّا دعوا للرحمن ولداً، تقدس الله تعالى عنه."[1]

الثالثة: لمّا ذكر قوله تعالى أوصاف نعيم الجنّة التي وعدها الرحمن عباده في سورة مريم، وأخبر أنه تعالى سيجعل الجنة ميراثاً لعباده المؤمنين المتّقين عند قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)﴾، وردت نفس البشارة للمؤمنين في سورة الزخرف حيث قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72)﴾، ولم تأت هذه البشارة بالألفاظ المتشابهة في القرآن إلا في هاتين السورتين، وفي سورة الأعراف عند هذه الآية: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)﴾.

الرابعة: لمّا ردّ تعالى ادّعاء الكافرين والمشركين بأن آلهتهم من دون الله ستشفع لهم في الآخرة في سورة مريم حيث قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)﴾، جاء نفس الرد على الكافرين في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)﴾. وإذا تدبّرنا القرآن الكريم بدقة وتأمل نرى أن الآيات التي تبطل ادعاء شفاعة الآلهة التي عبدها الكافرون والمشركون تأتي بفعل النفي نحوَ "لا تَنْفَعُ" كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾[سورة طه: 109]، أو بفعل "لا تُغْنِي" كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾[سورة النجم: 26]، أو بفعل "لا يُقْبَلُ" كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

---

[1] الإسكافي، درة التنزيل، ج2 – ص885-886.

شَفَاعَةٌ﴾[البقرة: 48]، ولم تأت في سورتي مريم والزخرف، وأتى التعبير عن الشفاعة فيهما فقط بفعل النفي "لا يَمْلِكُ" الذي يفيد عدم القدرة والاستطاعة.

الخامسة: لمّا ذكر تعالى قول المشركين الشنيع في الله بأنّ له ولداً، وأنكر عليهم هذا الزعم في سورة مريم حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88)... أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92)﴾، جاء نفس الردّ على ادعائهم في سورة الزخرف حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81)﴾.

السادسة: لمّا بين تعالى أنه أهلك أهلَ قرونٍ كثيرةٍ كانوا أكثر من مشركي العرب متاعاً، وأجمل منهم منظراً، وأكثر منهم قوةً في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا(98)﴾، جاء نفس الإخبار عن إهلاك الأقوام الماضية في سورة الزخرف حيث قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)﴾.

السابعة: "الصراط المستقيم" هو ما جاء به الإسلام من عقائد وآداب وأحكام، توصل الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة، وهو طريقُ حقّ ونجاةٍ نطلبه من ربنا الله أن يهدينا إليه عند كلّ صلاة لنا في اليوم. وورد هذا التركيب في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة[1]، ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)﴾، يفيد المعنى نفسه أيضاً. وجاء هذا التركيب في سورة الزخرف ثلاث مراتٍ في هذه الآيات: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)﴾، و﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)﴾، و﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(64)﴾، وسورة الزخرف من السور التي ورد هذا التعبير فيها أكثر من غيرها.

الثامنة: لمّا ذكر الله تعالى قصة مريم عليها السلام وإرساله جبريل عليه السلام إلى مريم ليهب لها غلاماً زكياً، خاطبها جبريل عليه السلام بهذا الخطاب: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ (19)﴾، مضيفاً رسالته إلى ربّها، وورد الخطاب المتشابه لهذا في سورة الزخرف أيضاً عند خطاب موسى عليه السلام إلى فرعون في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46)﴾. وإذا تأملنا في القرآن نجد أنه لم يرد خطابُ أي واحدٍ من الرسل بتلك الإضافة والتركيب(رسول ربّ) إلا في سور مريم

---

[1] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص580-581.

والشعراء والزخرف والحاقة، ومن العجيب أن هذا الخطاب كلّه كان خطاب موسى عليه السلام سوى ما جاء في سورة مريم، وهو خطاب جبريل عليه السلام.

التاسعة: بدأت سورة مريم بقصة زكريا عليه السلام حيث يخبر قوله تعالى أن هذه القصة تذكر رحمة الله عبده زكريا، فقال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)﴾، وجاء هنا تعبير (رحمت ربّك) بتاء مفتوحة، وورد التعبير نفسه في سورة الزخرف عندما كان يردّ تعالى على المشركين في طلبهم شخصاً آخرَ للرسالة، فالله يختصّ برحمته من يشاء، حيث قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ... وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)﴾. وإن المتأمل في القرآن يرى أن تعبير "رحمت ربك" بتاء مفتوحة ورد في سورتي مريم والزخرف فقط، وأمّا تعبير "رحمة ربك أو ربه" بتاء المربوطة جاء أيضاً في القرآن أربع مراتٍ فقط.[1]

العاشرة: لمّا دعا إبراهيم عليه السلام أباه وقومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، ولم يقبل أبوه وقومه هذه الدعوة، وَدَعهم إبراهيم عليه السلام على ما كانوا بقول السلام في سورة مريم حيث قال تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47)﴾، وكذلك أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدع ويتارك المشركين الذين لم يؤمنوا ويصدقوا للنبي عليه السلام في سورة الزخرف في آخر الآية: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)﴾، ومعنى السلام في كلا الآيتين المتاركة والتوديع.[2] ووردت كلمة السلام في القرآن بمعانٍ مختلفة، منها السِّلم والسلامة، والصلح، وتسليم المؤمنين على بعضهم البعض[3]، وإذا تدبّرنا القرآن نرى أن كلمة السلام لم تأت بمعنى المتاركة والتوديع إلا في سورتي مريم والزخرف، وفي سورة الفرقان حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)﴾، وفي سورة القصص عند قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55)﴾.

الحادية عشرة: ورد تركيب "السموات والأرض وما بينهما" في القرآن سبع عشر مرة، والسماوات: العوالم العلوية، والأرض: العالم السُفْلي، وما بينهما: الأجواء والآفاق، وتلك الثلاثة تعم سائر الكائنات.[4] وجاء هذا التركيب في سورة مريم حيث قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

---

[1] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص305-306.

[2] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج27 – ص656-658.

[3] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص421-424.

[4] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص142.

بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)﴾، وفي سورة الزخرف أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)﴾.

الثانية عشرة: لمّا ذكر سبحانه وتعالى أن مصير الكافرين إلى جهنم في الآخرة، جاءت تسمية أصحاب جهنم بالمجرمين في سورة مريم حيث قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86)﴾، وجاءت نفس التسمية في الحديث عن أصحاب جهنم في سورة الزخرف، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74)﴾. ومن الأمر العجيب أنه ما جاءت تسمية أصحاب جهنم باسم المجرمين إلا في هاتين السورتين. وذلك يشير إلى تناسقهما في هذا الموضوع.

الثالثة عشرة: الجنة هي دار المؤمنين في الآخرة، ووعد الله تعالى أن سيُدخلهم الجنة جزاءً بما عملوا من الصالحات، وورد هذا الوعد في آياتٍ كثيرة، ومنها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60)﴾، وذكر قوله تعالى نفس الوعد في سورة الزخرف، حيث قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70)﴾.

المبحث الثاني: التناسق في متّفق الكلمات التي ذكرت في كلتا السورتين

يرى الباحث أن في سورتي مريم والزخرف نوعاً آخر من التناسق، حيث إن سورتي مريم والزخرف قد اتفقتا في ذكر بعض الكلمات المعينة التي لم تذكر في القرآن كثيراً، وسيشار إلى هذه الكلمات في هذا المبحث:

مريم والزخرف: إن سورة مريم سميت بهذا الاسم لما فيها من ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، وهي السورة والحيدة التي سميت باسم المرأة في القرآن، وسميت سورة الزخرف بهذا الإسم لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الزائل، ومعلوم أن معنى الزخرف في اللغة الزينة وكمالُ حُسْنِ الشيء، ثم سُمِّيت كل زِينةٍ زُخْرُفاً[1]، وهي السورة الوحيدة التي سميت بهذا المعنى. وإذا تأملنا التناسق بين هاتين السورتين الذي أشرنا إليه خلال هذه الدراسة نرى أيضاً التناسق في تسمية كلتا السورتين، وذلك أن الزخارف مثل الذهب والفضة وغيرهما من أنواع الزينة تهتمّ بها النساء في الغالب، ولك التدبر.

---

[1] انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص135؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص815؛ ابن منظور، لسان العرب، ج9 – ص132-133.

الرحمن: هو اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه أن الله تعالى وسع كلّ شيء رحمة[1]، وورد هذا الاسم في القرآن سبعاً وخمسين مرة[2]، ومن العجيب أن هذا الاسم ورد في سورة مريم أكثر من وروده في السور الأخرى، وقد تكرر ست عشرة مرة، والسورة التي تتلو سورة مريم في عددِ مراتِ ورودِ اسمِ الرحمن هي سورة الزخرف، حيث ورد اسم الرحمن فيها سبع مرات.

المهد: وهو في اللغة موضع الصبيّ الذي يُهَيّأُ له ويُوَطَّأُ لينام فيه، أوالمكان الممهّد والموطأ كالأرض جعلها الله مهاداً للعباد.[3] ووردت هذه الكلمة في القرآن خمس مراتٍ[4]، ومن هذه الآيات التي وردت فيها كلمة المهد قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)﴾، وجاءت في هذه الآية بمعنى الموضع الذي يُهَيَّأ للصبي. وجاءت هذه الكلمة أيضاً في سورة الزخرف حيث قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10)﴾، وهنا بمعنى المكان الممهّد والموطأ للعباد.

الأخت: هي مؤنث الأخ، ووردت في القرآن تسع مراتٍ[5]، وجاءت هذه الكلمة في سورة مريم حيث قال تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ (28)﴾، واختلف العلماء في المقصود بهارون في هذه الآية إلى عدة أقوال، وأحدها: أن هارون كان من أفسق بني إسرائيل وأظهرهم فساداً فشبّهوها به، وعلى هذا القول الأخت هنا بمعنى المشابهة لا بمعنى النسبة، وإطلاق اسم الأخ على النظير المشابه معروف في كلام العرب وفي القرآن، حيث قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48)﴾، أي: من الآية التي تقدمتها، وسميت الآية بالأخت لها لاشتراكهما في الصحة والإبانة والصدق.[6]

يا ليت: هي طمعٌ وتمنٍّ[7]، ووردت هذه الكلمة في القرآن أربع عشرة مرة[8]، ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23)﴾، وهو حكاية عن

---

[1] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص347.

[2] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص307.

[3] ابن منظور، لسان العرب، ج3 – ص410-411؛ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص780.

[4] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص677.

[5] المصدر نفسه، ص24.

[6] انظر: الثعلبي، الكشف والبيان، ج6 – ص213؛ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص68؛ ابن الجوزي، زاد المسير، ج5 – ص228.

[7] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص749.

[8] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص655.

كلام مريم عليها السلام، بأنها تمنت الموت قبل ولادته؛ فترى أن الموت أهون عليها من هذه البلوى التي ابتلاها الله تعالى بها؛ لأن قومها سيظنون بها سوءاً ويقذفونها زوراً وبهتاناً.[1] وجاء نفس التحسر في سورة الزخرف في موقف الكافر في الآخرة حيث قال تعالى مخبراً عنه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)﴾، وهو يتمنى أن تكون بينه وبين قرينه الشيطان مسافةُ ما بين المشرق والمغرب، وهو التحسر أيضاً.

الشفاعة: وردت كلمة الشفاعة في القرآن ثلاث عشرة مرة[2]، فالشفاعة بيد الله تعالى، وهو يعطيها لمن يشاء من عباده. والقرآن يردّ على الاعتقاد بشفاعة الآلهة من دون الله تعالى في آيات كثيرة، حيث قال تعالى في سورة مريم: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)﴾، وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)﴾. وأتى التعبير عن نفي الشفاعة في هاتين السورتين بفعل النفي "لا يَمْلِكُ" التي تفيد عدم القدرة والاستطاعة، ولم يذكر نفي الشفاعة بالمُلْك إلا في هذين الموضعين، وفي اختصاص هذا التعبير في هاتين السورتين إشارة إلى تناسقهما في هذا الموضوع.

الساعة: والساعة جزء من أجزاء الزمان، ويُعبّر به عن الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وسميت القيامة ساعة؛ لأنها تَفْجَأُ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأُولى[3]، حيث ذكرها الله عز وجل فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[سورة يس: 29]. ووردت كلمة الساعة في القرآن ثماني وأربعين مرة[4]، وأربعون منها جاءت بمعنى القيامة. ومنها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ(75)﴾، ووردت هذه الكلمة في سورة الزخرف ثلاث مراتٍ عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا(61)﴾، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)﴾.

رفع: ورد هذا الجذْر في القرآن بصيغها المختلفة تسعاً وعشرين مرة[5]، وهو يطلق على الأشياء والأجسام إذا أعليتها عن مقرّها، مثل قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ(63)﴾(سورة البقرة)،

---

[1] انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – 85.

[2] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص384.

[3] ابن منظور، لسان العرب، ج8 – ص169.

[4] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص370-371.

[5] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص323.

وفي المنزلة إذا شرفتها[1]، مثل قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)﴾، وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ(32)﴾، وذكر هذه الكلمة في كلتا السورتين – مع ذكرها في القرآن نادراً- يشير إلى تناسقهما في ورود بعض الكلمات المعينة.

سبحان: معناه تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف[2]، وهذه الكلمة وردت في القرآن واحداً وأربعين مرة.[3] منها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ(35)﴾، وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13)﴾، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)﴾، وفي ذكر هذا التسبيح والتقديس في كلتا السورتين –مع ورودها في القرآن نادراً- يشير إلى تناسقهما أيضاً في ورود بعض الكلمات المعينة.

آلهة: هي جمع إله، وحقه أن لا يجمع، إذ لا معبود سوى الله، لكن العرب لاعتقادهم أن هناك معبوداتٍ أخرى جمعوه.[4] وقد ردّ الله تعالى على أن هناك آلهة من دونه في آيات كثيرة، ووردت هذه الكلمة في القرآن أربعاً وثلاثين مرة[5]، ومنها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ(46)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81)﴾، وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ(58)﴾.

إسرائيل: هو لقب يعقوب عليه السلام، ومعناه في لسانهم صفوة الله أو عبد الله[6]، ويتحدث القرآن عن اليهود بتعبير "بني إسرائيل" غالباً، وورد هذا اللقب ليعقوب عليه السلام في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة[7]، ومنها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا(58)﴾، وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59)﴾.

---

[1] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص360-361.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج2 – ص471.

[3] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص339-340.

[4] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص83.

[5] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص39-40.

[6] الطبري، جامع البيان، ج1 – ص553؛ الزمخشري، الكشاف، ج1 – ص159.

[7] عبد الباقي، معجم المفهرس، ص33.

المبحث الثالث: التناسق العددي بين سورتي مريم والزخرف

القرآن متناسق في سوره وآياته، وكلماته وحروفه، وترتيبها فيه، ومن مظاهر هذا التناسق الشامل في القرآن أيضاً هو التناسق العددي، والمراد منه: "التناسق والانسجام في الأعداد القرآنية، وفي استعمال القرآن لكلمات محددة أو حروف معينة، فكلمة كذا مذكورة كذا مرة..."[1]

ومعلوم أن موضوع هذه الدراسة تناسق سورتي مريم والزخرف، وإذا تدبّرنا كلتا السورتين نرى أن التناسق العددي يظهر فيهما بجوانب مختلفة، منها: عدد آياتهما، وترتيبهما في المصحف وفي النزول، وورود نفس الموضوع في آيات متقاربة عدداً، وورود الكلمات المعيّنة في آيات متقاربة، وورود بعض الكلمات من نفس الجذر في آيات متقاربة، وعدد مرات ورود بعض الكلمات. ويرى الباحث أن يشير إلى هذا التناسق في السورتين في هذا المبحث:

أولاً: إن عدد آيات سورة مريم ثمان وتسعون، وعدد آيات سورة الزخرف تسع وثمانون، أي: تعكس رقم عدد الآيات.

ثانياً: إن سورة مريم هي السورة الرابعة والأربعون وفق ترتيب النزول[2]، وأما سورة الزخرف فهي السورة الثالثة والأربعون حسبَ ترتيب المصحف.

ثالثاً: جاء الردّ على الكافرين في زعمهم الشفاعة في الآخرة في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)﴾، ورقمها سبعة وثمانون، ورد نفس الرد في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)﴾، ورقمها ستة وثمانون.

رابعاً: ورد الحديث عن كتابة أعمال العباد في سورة مريم حيث قال تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79)﴾، ورقمها تسعة وسبعون، وجاء نفس الموضوع في سورة الزخرف عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)﴾، ورقمها ثمانون.

خامساً: وردت كلمة "إسرائيل" في سورة مريم في هذه الآية: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا(58)﴾، ورقمها ثمانية وخمسون، وفي سورة الزخرف عند قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59)﴾، ورقمها تسعة وخمسون.

---

[1] الخالدي، صلاح عبد الفتاح، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، ط1، عمان الأردن، 2000، ص328.

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16 – ص58.

أخيراً: وردت بعض الكلمات والتراكيب نفسها في سورتي مريم والزخرف بنفس العدد، وبعض هذه الكلمات هي: "آلهة" مرتين، "كذلك" مرتين، "جنة" مرتين، "متّقين" مرتين، "مجرمين" مرة واحدة، "آيات" ثلاث مرات، "ذلك" مرتين، "السموات والأرض" ثلاث مرات، وكلمة "سوف" مرتين. ولا يخفى ما في ذلك من لطيف التناسق بين السورتين.

الخاتمة

الحمد لله الذي منّ عليّ بإتمام هذه الرسالة، والذي ساعدني وأيدني، ومنحني وقتاً وقوة على إنهاءها، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً للإسلام والمسلمين، ومفيداً لطلبة العلم، وبعد:

اتضحت بعد هذه الدراسة "التناسق بين سورتي مريم والزخرف" النتائج والثمرات والتوصيات، كما في النقاط التالية:

- إن دراسة تناسق القرآن مجال جديد يشير إلى اتساق القرآن آياته ومقاطعه وسوره، فهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن في بديع نظمه.
- إن القرآن الكريم يتناول موضوعات كثيرة لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، وللقرآن أسلوب رائع ومنهج خاصّ في تناوله هذه الموضوعات، وقد تبين خلال هذه الدراسة أن سورتي مريم والزخرف تناولت الموضوعات نفسها بشكل متشابه متناسق.
- وكذلك للقرآن طريقة خاصة وترتيب خاصّ في عرض قصص الأنبياء والقرون السابقة، وإن المتأمل سورتي مريم والزخرف يرى أن كلتيهما تحدثتا عن قصص الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام طارحة المحاور نفسها، وكانت هذه القصص متناسقة مع محور السورة وسياقها.
- إن القرآن الكريم كتاب متشابه تتشابه الآيات فيه وفي نظمها وتأليفها وترتيبها، وإذا استقرأ أي واحد سورتي مريم والزخرف يجد ورود الآيات المتشابهة الكثيرة فيهما متناسقاً في نظم آياتهما وترتيبها.
- إن المتدبر في القرآن بدقة يتبين له أن في ترتيب آيات السور، وفي ترتيب الكلمات في هذه الآيات تناسقاً وتلاؤماً كبيراً، وذلك إن من قدّم آية في السورة أو كلمة في الآية، أو أخرها فقد أفسد نظم الآيات، ونرى التناسق من هذا النوع بين سورتي مريم والزخرف أيضاً، حيث إنهما متفقتان في ذكر الكلمات المعينة التي لم ترد في القرآن كثيراً.
- التناسق العددي مظهر من مظاهر إعجاز القرآن البياني، ونرى هذا التناسق العددي في السورتين من جوانب مختلفة.
- ويظهر أيضاً من هذه الدراسة التي حاول الباحث فيها أن يشير إلى تناسق سورتي مريم والزخرف في موضوعاتهما وقصصهما وآياتهما وكلماتهما أن في السورتين نظماً بديعاً،

وتأليفاً عجيباً، وأسلوباً رائعاً وطريقة خاصة تحيرت منها العقول وفاقت قدرة البشر، وأن له منهجاً بديعاً في ترتيب موضوعاته وقصصه وآياته وكلماته وحتى حروفه، حيث إنه لا تصادف فيه؛ بل وردت الموضوعات والقصص والآيات والكلمات كلها في مواضعها الأكثر مناسبة في القرآن مع السبب والحكمة. وذلك من الأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله، وأنه ليس كلام البشر، وعلى إعجازه الفائق حيث إنه لم يقدر الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

- ولا شك أن التناسق الكبير الذي أشار الباحث إليه من خلال هذه الدراسة ليس خاصاً بهما، وإن المتدبر في القرآن بدقة يرى مثل هذا التناسق بين سور القرآن الأخرى، وأوصي الباحثين في التفسير وخاصة في التناسق القرآني دراسة تناسق سور القرآن سواء كانت متتالية أم متباعدة وفق ترتيب المصحف.

المراجع

- الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، (المتوفى: 1270هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، عدد الأجزاء: 30، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مصطفى، إبراهيم؛ الزيات، أحمد؛ عبد القادر، حامد؛ والنجار، محمد؛ **المعجم الوسيط**، المكتبة الإسلامية.
- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، (المتوفى: 606هـ)، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ط1، دار ابن الجوزي، 1421.
- بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، (المتوفى: 241هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون)، عدد الأجزاء: 50، مؤسسة الرسالة، 1999.
- الألباني، محمد ناصر الدين، (المتوفى: 1420هـ)، **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، ط1، عدد الأجزاء: 7، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1995.
- الألباني، محمد ناصر الدين، (المتوفى: 1420هـ)، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، ط1، عدد الأجزاء: 14، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1992.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، (المتوفى: 403هـ)، **إعجاز القرآن**، دار المعارف، القاهرة.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله، (المتوفى: 256هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، ط1، عدد الأجزاء: 9، دار طوق النجاة، 1422.
- البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود، (المتوفى: 516هـ)، **معالم التنزيل**، ط4، عدد الأجزاء: 8، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1997.
- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، (المتوفى: 885هـ)، **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، ط1، عدد الأجزاء: 3، مكتبة المعارف، الرياض، 1987.

- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، (المتوفى: 885هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، عدد الأجزاء: 8، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.

- الرازي، أبو بكر زين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الحنفي، (المتوفى: 666هـ)، **مختار الصحاح**، ط5، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، 1999.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، (المتوفى: 685هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط1، عدد الأجزاء: 5، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، (المتوفى: 458هـ)، **دلائل النبوة أحوال صاحب الشريعة**، ط1، عدد الأجزاء: 7، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، (المتوفى: 458هـ)، **شعب الإيمان**، ط1، عدد الأجزاء: 14، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، 2003.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، (المتوفى: 279هـ)، **الجامع الكبير – سنن الترمذي**، ط1، عدد الأجزاء: 6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
- الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، (المتوفى: 427هـ)، **الكشف والبيان**، ط1، عدد الأجزاء: 10، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2002.
- ابن جبرين، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم، **شرح العقيدة الطحاوية**، روس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، (نسخة للمكتبة الشاملة).
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي، (المتوفى: 471هـ)، **كتاب دلائل الإعجاز**، ط3، مطبعة المدني، القاهرة، 1992.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (المتوفى: 597هـ)، **زاد المسير في علم التفسير**، ط3، عدد الأجزاء: 9، المكتب الإسلامي، بيروت، 1404.

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (المتوفى: 597هـ)، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، (المتوفى: 393هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ط4، عدد الأجزاء: 6، دار العلم للملايين، بيروت، 1987.
- ابن أبي حاتم، الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن الرازي، (المتوفى: 327هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، ط1، عدد الأجزاء: 10، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، 1997.
- الحاكم، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، (المتوفى: 405هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، ط1، عدد الأجزاء: 4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.
- حجازي، محمد محمود، 1970، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ط1، ، القاهرة: دار الكتب الحديثة.
- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، (المتوفى: 745هـ)، **تفسير البحر المحيط**، ط1، عدد الأجزاء: 8، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، 2000، **إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني**، ط1، دار عمار، عمان الأردن: دار عمار.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، 2012، **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق**، ط3، دار النفائس، عمان الأردن: دار النفائس.
- الخطيب، عبد الكريم يونس، (المتوفى: 1985م)، **التفسير القرآني للقرآن**، عدد الأجزاء: 5، دار الفكر العربي، القاهرة، 1967.
- الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، (المتوفى: 420هـ)، **درة التنزيل وغرة التأويل**، ط1، عدد الأجزاء: 3، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (30) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، 2001.
- أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر الأموي، (المتوفى: 444هـ)، **البيان في عد آي القرآن**، ط1، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، 1994.
- دراز، محمد عبد الله، (المتوفى: 1958م)، **النبأ العظيم**، دار القلم، الكويت.

- دروزة، محمد عزة، 2000، **التفسير الحديث**، ط2، عدد الأجزاء: 10، ، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الدقور، سليمان محمد، 2005، **اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني**، أطروحة دكتوره، غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد الأردن.
- الدمغاني، الحسين بن محمد،(المتوفى: 478هـ)، **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن**، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1980.
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، (المتوفى: 606هـ)، **مفاتيح الغيب**، ط3، عدد الأجزاء: 32، دار إحياء التراث العربى، بيروت، 1420.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، (المتوفى: 502هـ)، **مفردات ألفاظ القرآن**، ط5، دار القلم، دمشق، 2011.
- الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض الملقّب بمرتضى، (المتوفى: 1205هـ)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، عدد الأجزاء: 40، دار الهداية.
- الزحيلي، وهبة بن مصطفى، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، ط10، عدد الأجزاء: 17، دار الفكر، دمشق، 2009.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، (المتوفى : 1367هـ)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ط1، عدد الأجزاء: 3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، (المتوفى: 794هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، ط1، عدد الأجزاء: 4، دار إحياء الكتب العربية، 1957.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، (المتوفى: 538هـ)، **أساس البلاغة**، ط1، عدد الأجزاء: 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، (المتوفى: 538هـ)، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، عدد الأجزاء: 4، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن سعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، (المتوفى: 1376هـ)، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2002.

- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، (المتوفى: 982هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، عدد الأجزاء، 9، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (المتوفى: 756هـ)، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، عدد الأجزاء: 11، دار القلم، دمشق.
- سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، (المتوفى: 1966م)، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، القاهرة.
- سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، (المتوفى: 1966م)، **في ظلال القرآن**، عدد الأجزاء: 6، دار الشروق، القاهرة.
- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، (المتوفى: 911هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، ط1، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2008.
- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين،(المتوفى: 911هـ)، **أسباب النزول المسمى لباب النقول في أسباب النزول**، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 2002.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، (المتوفى: 911هـ)، **تناسق الدرر في تناسب السور**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، (المتوفى: 1393هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، عدد الأجزاء: 10، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، 1983.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني، (المتوفى: 1250هـ)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، ط1، عدد الأجزاء: 5، دار الخير، بيروت، 1992.
- الصابوني، محمد علي، **صفوة التفاسير**، ط4، عدد الأجزاء: 3، دار القرآن الكريم، بيروت، 1981.
- الصعيدي، عبد المتعال، (المتوفى: 1958م)، **النظم الفني في القرآن**، مكتبة الآداب، القاهرة، 1992.

- ابن الضريس، أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس بن يسار الضريس البجلي الرازي، (المتوفى: 294هـ)، **فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة**، ط1، دار الفكر، دمشق، 1987.
- الطباطبائي، السيد محمد حسين، (المتوفى: 1981م)، **الميزان في تفسير القرآن**، ط1، عدد الأجزاء: 22، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، 1997.
- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن أمين الدين الإمامي، (المتوفى: 548هـ)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، عدد الأجزاء: 10، دار المعرفة، بيروت، 1986.
- الطبري، أبو جعفرمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (المتوفى: 310هـ)، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، ط1، عدد الأجزاء: 24، مؤسسة الرسالة، 2000.
- طنطاوي، محمد سيد، (المتوفى: 2010م)، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، عدد الأجزاء: 15، دار المعارف، القاهرة، 1992.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (المتوفى: 1393هـ)، **التحرير والتنوير**، عدد الأجزاء: 30، دار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- عباس، فاضل حسن، **قصص القرآن الكريم**، ط3، دار النفائس، عمان الأردن، 2010.
- عبد الباقي، محمد فؤاد، (المتوفى: 1967م)، **معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، دار الحديث، القاهرة، 1364.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، (المتوفى: 542هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، عدد الأجزاء: 5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
- الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، (المتوفى: 708هـ)، **البرهان في تناسب سور القرآن**، ط1، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، 1428.
- الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي،(المتوفى: 708هـ)، **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، ط1، دار الغرب الإسلامي، عدد الأجزاء: 2، بيروت، 1983.
- الغماري، أبو الفيض أحمد بن محمد بن الصدِّيق بن أحمد الحسني، (المتوفى: 1380هـ)، **جواهر البيان في تناسب سور القرآن**، مكتبة القاهرة، القاهرة.

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، (المتوفى: 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، عدد الأجزاء: 6، دار الفكر، 1979.
- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، (المتوفى: 817هـ)، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، ط3، عدد الأجزاء: 6، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996.
- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، (المتوفى: 817هـ)، **القاموس المحيط**، ط8، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005.
- الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي ثم الحموي، (المتوفى: نحو 770هـ)، **مصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، عدد الأجزاء: 2، المكتبة العلمية، بيروت.
- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، (المتوفى: 1332هـ)، **محاسن التأويل**، ط1، عدد الأجزاء: 17، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، (المتوفى : 671 هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، عدد الأجزاء: 20، دار عالم الكتب، الرياض، 2003.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (المتوفى: 774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، ط8، عدد الأجزاء: 8، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، (المتوفى: 774هـ)، **قصص الأنبياء**، ط1، عدد الأجزاء: 2، مطبعة دار التأليف، القاهرة، 1968.
- الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، (المتوفى: 333هـ)، **تأويلات أهل السنة**، ط1، عدد الأجزاء: 10، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، (المتوفى: 450هـ)، **النكت والعيون**، عدد الأجزاء: 6، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المحلي، جلال الدين محمد بن أحمد، والسيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: 864هـ، 911هـ) **تفسير الجلالين**، ط3، دار الحديث، القاهرة، 2001.

- المخللاتي، رضوان بن محمد بن سليمان، (المتوفى: 1311هـ)، **شرح العلامة المخللاتي المسمى بـــ «القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز» على ناظمة الزهر**، ط1، مطابع الرشيد، المدينة، 1992.
- المراغي، أحمد بن مصطفى، (المتوفى: 1371هـ)، **تفسير المراغي**، ط1، عدد الأجزاء: 30، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، 1946.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (المتوفى: 261)، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، عدد الأجزاء: 5، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، (المتوفى: 150هـ)، **تفسير مقاتل بن سليمان**، ط1، عدد الأجزاء: 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، (المتوفى: 711هـ)، **لسان العرب**، ط3، عدد الأجزاء: 15، دار صادر، بيروت، 1414.
- أبو موسى، محمد، 2010، **آل حم الشورى-الزخرف-الدخان دراسة في أسرار البيان**، ط1، ، القاهرة: مكتبة الوهبة.
- مسلم، مصطفى؛ الكبيسي، عيادة؛ البدوي، أحمد؛ الخطيب، عبد الله؛ القضاة، محمد عصام؛ سعد، قاسم؛ الخلف، عواد، 2010، **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، ط1، عدد الأجزاء: 10، جامعة الشارقة.
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، (المتوفى: 710هـ)، **تفسير النسفي- مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، ط1، عدد الأجزاء: 3، دار الكلم الطيب، بيروت، 1998.
- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي، (المتوفى: 850هـ)، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، ط1، عدد الأجزاء: 6، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416.
- النيسابوري، أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الضرير الحِيري، (المتوفى: 431هـ)، **وجوه القرآن الكريم**، ط1، دار السقا للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996.

- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، (المتوفى: 807هـ)، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، عدد الأجزاء: 10، مكتبة القدسي، القاهرة، 1994.
- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي، (المتوفى: 468هـ)، **أسباب نزول القرآن**، ط2، دار الإصلاح، الدمام، 1992.

CONSISTENCY BETWEEN SURAT MARYAM AND AL-ZUKHRUF AN ANALITICAL STUDY

By

Mucahit Niyazi Cosgun

Supervisor

Yahia Dahi Shatnawi

ABSTRACT

This study aims to show the harmony between the two surahs "Maryam and Al – Zukhruf", and studying them analytical and comparatively study.

The researcher started the research with introductions to the study, since he identified the term of "consistency" linguistically and terminologically and identified the other terms, like "proportionality" and "unity of objectivity in the Quran's surahs".

Then he identified Maryam and Al-Zukhruf surahs with different aspects, and talked about surah's name and the number of their verses, their objectives, connections, virtues and their descending.

Then he addressed the harmony between the two surahs regarding the basic and sub-topics with harmony an similarity in addressing these topics, then indicated to the narrative harmony between the two surahs, since they talked about Ibrahim, Musa and Isa stories (Peace Be Upon them), passing the same axis, also showed the connection of mentioning these stories with these surahs.

In the last chapter, the researcher talked about the consistence in the composing similarities between the two surah, in which he showed the similar verses in the two surahs, and indicated to consistency in the presence of specific words in them and to their numerical consistence.

Then concluded the research with a conclusion, in which he mentioned the most important results showing the explicit consistency between the two surahs although they are far from each other in the order of Quran's surahs and mentioned recommendations.